عزت القمحاوي
غربة المنازل
رواية
الدار المصرية اللبنانية

عزت القمحاوي

# غربة المنازل

غربة المنازل: رواية / عزت القمحاوي .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.
208 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 332 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 15118 /2021

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2021م
الطبعة الثانية: 2021م

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

عزت القمحاوي

# غربة المنازل

رواية

الدار المصرية اللبنانية

# 1

..ودخلتُ المدينةَ فرأيتُ رجلاً واقفًا في الطريق فدنوت منه وتأملته فوجدته حجرًا، ثم إني لم أزل ماشيًا في شوارع تلك المدينة وكلما رأيت إنسانًا أدنو منه وأتأمله فأجده حجرًا، وقابلت امرأة عجوزًا على رأسها عقدة ثياب مهيأة للغسيل فدنوت منها وتأملتها فوجدتها من الحجر والعقدة والثياب التي على رأسها من الحجر، ثم إني دخلت السوق فرأيت زيَّاتًا ميزانه منصوبة وقُدَّامه أصناف البضائع من الجبن وغيره، وكل ذلك من الحجر ثم إني رأيت سائر المتسببين جالسين في الدكاكين وبعض الناس واقف وبعض الناس جالس ورأيت رجالاً ونساءً وصبيانًا، وكل ذلك من الحجر.

من «حكاية عبدالله بن فاضل وأخويه ناصر ومنصور»

(ألف ليلة وليلة- الليلة ٩٨٢طبعة بولاق)

# ١٧ أغسطس ٢٠٢٠

قفزا إلى الترام بعد أن بدأ يتحرك. استقبلتهما عاصفة من الصراخ المستنكر. ارتبك الرجل الغريب عن المدينة. مد يديه تلقائيًّا وأحكم كمامته فوق وجهه، مع ذلك استمر الصراخ. لم يفهم شيئًا، لكن فريدة أدركت ولم تكترث.

كانت فريدة قد رأت الترام داخلاً إلى المحطة، فلم تفكر بأي شيء سوى الوصول إلى باب. أي باب، ولو لم يقفزا إلى تلك العربة لكان عليهما انتظار الترام التالي، ولن يكون بوسع يوسف اللحاق بآخر قطار لمدينته، وليس هناك مكان يمكن أن يقضي فيه ليلته.

لاحظت ارتباكه؛ فتقدمته صاعدة، لكنه ظل جامدًا لم يتجاوز رأس السلم، وقف ملتصقًا بالباب، مندهشًا من استمرار الجلبة وإشارات الاستنكار باتجاهه. غمره ضيق كالذي يحسه عندما يستيقظ عاجزًا عن إدراك مكان بات فيه للمرة الأولى.

استدارت إليه وانحنت على أذنه وهمست:

ـ هذه عربة النساء.

مدت إليه يدها؛ فتلقَّفها وصعد حتى صار بجوارها على رأس السلم. وقفا متشبثين بقائم العربة المواجه للباب. من جانبه كان عدم التوغل إلى فسحة أقل ازدحامًا وسط العربة نوعًا من الاعتذار الصامت عن خطأ رتَّبته الظروف، ومن جانبها كان عدم التقدم رفضًا للاندماج في عربة لا تحب أن تستقلها حتى عندما تكون بمفردها، فهي ترى أن النساء يخرجن أسوأ ما فيهن في غياب الرجال.

شيئًا فشيئًا انحسرت الصرخات من طرفي العربة واستقرت في بقعة من مرتديات الأسود في الوسط، ثم أخذت أصواتهن تخبو وتستيقظ بالتناوب مثل جمر يتناوب الترميد والتوهج بالتناوب مع صفعات العجلات للقضيبين. دون أن تتوقف عيونهن عن السباب.

متعثرًا في الحرج وقف يوسف منفصلاً عن فريدة، أما هي فقد جعلت ذراعها الحرة سياجًا خلف ظهره، بينما تحتضنه عيناها ببهجة متباهية. عند ذاك سمعت جملة هامسة:

ـ لا تهتم، في محطة قادمة تُغيِّرا العربة.

نظرت تستطلع صاحبة الصوت التي تتشبث معهما بذات القائم. وجدت على وجه المرأة ابتسامة لم تفهمها؛ فهي ليست تلك التي نصطنعها بالمباعدة بين الشدقين لتكون نوعًا من راية أمان نرفعها

لطمأنة غريب ضل الطريق. ابتسامة المواساة لا تكون عميقة هكذا، ولا تواصل التوسع على هذا النحو.

رغم نور العربة الباهت، كانت فريدة ترى بوضوح لمعة عيني المرأة وارتفاع وجنتيها وانبساط فمها من تحت الكمامة، وبدا واضحًا لها أن الابتسامة الحلوة مجرد السطح الرقراق لنبع يصعب تقدير عمقه. وذلك العمق الذي تعذر على فريدة تقديره هو ما جعلها قلقة، وعلى يقين بأن ابتسامة هذه المرأة تحتضن.

ـ نعم، نعم، تحتضنه.

قالت لنفسها؛ وأخذت تتفحص المرأة، بحثًا عن مدخل يُمكِّنها من التوغل في عمق ابتسامتها:

ـ هل هي ساهية حقًّا أم تستهتر بي؟

تفحصت يوسف لترى أثر نظرة المرأة عليه؛ فرأته مستأنسًا، كأنه لم يكن غارقًا في الحرج منذ لحظة.

شفتاه ـ اللتان تحب حتى عبوسهما ـ تبتسمان للمرأة، بل تبدوان متحفزتين، يمكن في أية لحظة أن يجمعهما فيصبح لهما شكل فيونكة يلصقها على خد المرأة. ما تراه من تحت كمامته ليس سوى ظل الابتسامة، لكنه كاف ليكشف عن التحفز الذي يسبق انعقاد الفيونكة. حاولت تخمين درجة انتفاخ شفتي المرأة، وتخيلت شيئًا أطلق في قلبها جلبة كالتي تسمعها عند انهيار رصَّة طويلة من الأواني في المطبخ.

ـ مجرد جملة متعاطفة من امرأة غريبة تمنحه كل هذا الارتياح؟! وهذه الابتسامة الساهية السخيفة، لماذا؟!

لم تهدأ كركبة الغيرة في قلبها إلا تحت جلبة أعلى صنعتها الدهشة؛ إذ انتبهت إلى أن المرأة تشبهها بشكل لا يُصدَّق، وتضع حجابًا أنيقًا كالذي ترتديه.

في بداية تعارفهما، امتدح يوسف أناقة حجابها. أسعدتها ملاحظته، وجعلتها تتراجع عن فكرة التخلي عن الحجاب.

المرأة لها قوام جميل في غير صخب، تمامًا يشبه قوامها، الذي يحبه عمر، لها القامة الفرعاء ذاتها. أكلها الفضول للتأكد فاقتربت من المرأة كي تلامسها بحيث يبدو ذلك عفويًّا من أثر الاهتزاز.

إذا قلنا إن فريدة في الخامسة والأربعين؛ فالأخرى في نحو الخامسة والستين أو أكثر، ولم تزل مقبولة جدًّا؛ بل تبدو شهية.

أجرت فريدة حسابًا سريعًا، وتمتمت لنفسها برضى:

ـ لم يزل أمامي عشرون عامًا على الأقل.

غرَّدت عصافير قلبها فرحًا، وصارت عربة الترام مرج فل، وغادرها أسى سؤالها الدائم ليوسف:

ـ ألم يكن بوسعك الانتظار؟!

في كل لحظة سعادة تشملهما، تتذكر بأسف أن مصادفة بسيطة كان بوسعها أن تُعجِّل بتعارفهما خمسة عشر عامًا. حصلت على وظيفة في شركة، كان يوسف قد غادرها قبل ذلك بشهرين تاركًا لدى كل من تعامل معه ذكريات حسنة. أحبته من الوصف، وبعد كل تلك السنوات قابلته مصادفة في سهرة عند صديقتها هيام، وضربهما الغرام.

لم تعرف أبدًا إلى من تتوجه باللوم على الوقت الضائع؛ فاستراحت إلى تحميله المسئولية.

ـ كان بوسعك الانتظار شهرين.

الآن تحس بالسعادة تغمرها:

ـ في الخامسة والستين سأكون هذه المرأة. ممتاز!

لكن وساوسها جعلتها تعيد التدقيق في ابتسامة المرأة مجددًا؛ فذبل الفل، وكَّفت العصافير عن الزقزقة. صار واضحًا أن ابتسامة المرأة تتوسع وتحتوي يوسف مثل فخ. صار ذلك واضحًا. أخذت تُقلِّب بصرها بين رفيقها والمرأة الغريبة. كان يبتسم بحيائه الذي يكرهه بعض النساء ويفتن بعضهن. وفريدة تحب حياءه، كانت تحبه جدًّا.

ـ الآن، انتهى!

بدت في تلك اللحظة كارهة لخجله الذي يجذب النساء كالمغناطيس، النساء المميزات بالذات، ولا تعرف الآن لماذا يبتسم لهذه الأخرى؟

ـ أووف.

انتبهت إلى أن المرأة ترتدي مثلها بلوزة زرقاء، لكن بدرجة أفتح من الأزرق الملكي الذي ترتديه هي. تحركت لتواجهها مجددًا. حدَّقت فيها بتحد، لكن المرأة بدت مُصِرَّة ولم تتراجع عن ابتسامتها. من تراجعت فجأة هي فريدة نفسها. أحست أنها مخطئة ومتسرعة، لأن ابتسامة المرأة تحتضنهما معًا.

ـ ربما، ترى نفسها فينا.

قالت لنفسها، وجعلها هذا الخاطر تهدأ، وما لبثت أن عادت تدقق في عمق عيني المرأة. لم ترمشا، بل على العكس، حدَّقت بدورها إلى عيني فريدة كأنها تتقِّب في عمقهما عن جوهرة سقطت منها هناك.

أحست فريدة أنها عاجزة عن إغلاق أبواب عينيها في وجه هذه المتطفلة التي فتحت لنفسها دربًا فسيحًا داخل الساعة الماضية من عمر الحبيبين. سلكت الطريق الذي سلكاه. أسرعت مثلهما في المسافات المتآكلة من الرصيف، تمهلت عند الانعطافات المميزة والواجهات الجميلة، ميَّزت عمارة هيام والطابق، ودخلت الشقة محكمة الستائر. بدت من نظراتها أنها رأت تفاصيل الخمسين دقيقة التي قضياها حذرين من تخطي التوقيت الممنوح لهما أو تخطي صوتهما حدود الشقة.

استعارت شقة صديقتها، على بُعد عمارات قليلة من عمارتها، حيث لا تستطيع استقبال يوسف في شقتها. عيون الجيران عليها لأنها امرأة، رغم أن نصف رجال العمارة حاولوا التودد إليها، ويتوددون حتى إلى طِعمة زوجة البواب التي تجاريهم وتحكي معهم منشرحة، الفلاحة اللئيمة هي نفسها التي أهلكت يوسف أسئلة عندما دخل العمارة أول وآخر مرة.

أخذت ابتسامة المرأة تتوسع وتحتضن فريدة وعمر بعطف لا يخلو من شجِن، كأنه الأسى تجاه بهجة الحبيبين الكتيمة التي لم تجد صوتًا يضاهي جمالها ولا وقتًا لاستيعابها. فكَّرت:

ـ كأنه حزني أنا، منذ نصف ساعة، عندما كان علينا أن نغادر الشقة دون إبطاء.

# 2

شيء ما جعل فريدة تتوغل خلف الأسى الساكن تحت ابتسامة المرأة. لاحظت أن قبضة نظرتها عليهما بدأت تتفكك، حتى شردت في البعيد. فكَّرت أن هذا الأسى قد لا يكون بسببهما بالتحديد. ربما تُفكِّر في ذكرى تخصها، ربما أثار هلع مرتديات الأسود من وجود رجل في العربة أساها تجاه المدينة التي لم تعد تمت بأدنى صلة لأختها المطمورة تحت تلال القمامة على مشارفها!

ظلت مدينة الغبار تشبه توأمها طوال قرون عديدة، تشابهًا يصل إلى حد التطابق، حتى أن الغريب كان يدخل إحداهما بالليل فيظن أنه في الأخرى. لم تعش فريدة زمن المدينة عندما كانت حنونًا على العشاق، لكنها تسمع وتقرأ بكائيات ومراث لمدينة بائدة لا تشبه هذه القائمة إلا كما يشبه الأصل صورته في عمق مرآة مهشمة.

بدأت تحب شجن المرأة، التي عادت نظرتها لتحتضن يوسف، ووجدت نفسها تنسجم مع صورة يوسف في عينيها، ولم تعد تفكر بالغيرة منها. بادلتها نظرة امتنان على هذا العطف، لكن سرعان ما تيقنت من أن الأخرى تدقق فيها وتتوغل داخلها هي حتى تجاوزت نصف الساعة الأخير، ورأت عريها؛ فغمرها الخجل مجددًا، وبدأ نهير عرق يهبط على ظهرها، ويتسلل من تحت كمر البنطلون الجينز، ويبلل سروالها الذي لم يزل رطبًا.

أسبلت جفونها أمام عيني المرأة، وأطاعتها الجفون لحظة، لكن نوابض الفضول فتحتها رغمًا عنها، وتركت عينيها مكشوفتين بلا دفاع أمام نظرة المرأة؛ وجعلتها مسلوبة القوى ومرتبكة.

ربما يكون هناك شيء من المبالغة في استعارة لغة الحرب لوصف إحساس العاشقة بالأخرى. الأدق أن ما تحسه فريدة تجاه المرأة يشبه إحساس من تجد نفسها وجهًا لوجه مع صديقة فاجأتها بالزيارة في وقت غير مناسب، فلا هي تقوى على ردها، ولا هي تعرف كيف تُحسن استقبالها.

ـ ما هذه النظرة؟ كيف تجردني هذه المرأة من ملابسي هكذا؟ أووف!

لم تكن تقوى على العري قبل أن تعرف يوسف، ولم تزل تستحي عندما يلتقيان بعد غياب. رغم الرطوبة الخانقة اليوم، رفضت التخلي عن الغطاء، والنتيجة أنها كانت تنزلق فوقه كسمكة تتعثر في ماء ضحل.

تمادت النظرة المخترقة، وجعلتها تشعر أن المرأة رأت ذلك البلل، فغمرها الماء مجددًا.

مدَّت بصرها تستطلع العربة هروبًا من حرج التحديق المتبادل مع الأخرى؛ فاصطدمت نظرتها بعيون مكحولة تبدو من تحت النُقُب في البقعة السوداء. لم تتوقع أن عيونهن لم تزل مصوبة على يوسف، ولم تتبين شيئًا من ثرثراتهن التي تصلها مدعوكة تحت صلصلة العجلات ونقرات المحصل بصندوقه على أعمدة دعم سقف العربة.

أعادت التحديق في عيني الأخرى المستقرتين في الدهشة، لا تعرف لماذا شعرت في عمقهما أن المرأة لم تزل تتلكأ هناك، في الساعة الماضية، وأنها ترى، ذلك الشيء الذي فعلته اليوم للمرة الأولى ولم تكن تتصور أبدًا أنها ستفعله، كانت مصدومة أصلاً عندما سألتها هيام ذات مرة إن كانت قد جرَّبت ذلك الشيء، وخطر ببالها بعد أن جرَّبته أخيرًا أنها سوف تهاتف صديقتها بعد أن تودِّع يوسف، وأنها ستعترف لها بانتصار:

!Yes -

نعمبوسعها أن تعترف لصديقة، وليس لهذه المرأة بالطبع. لكن المرأة لا تنتظر اعترافًا؛ إذ ! تتأملها بشغف من رأت، حتى جعلت سطح جلدها يتحرك باللذة مجددًا، بينما أخذت سيول العرق .تتبع من كل حتة في جسمها

استعدت لشن هجوم على المرأة. أخذت نفسًا عميقًا من الهواء المشبع بالرطوبة، وحدَّقت بها أكثر فأكثر؛ فرأتها جميلة، بلا ترهلات في نقاط العمر بالرقبة وتحت العينين. وانتبهت إلى أنها ترتدي بنطلون جينز مثلها، وهذه شجاعة لا تتأتى للنساء في مثل عمرها. تمنت أن تمتلك بعد عشرين عامًا مثل هذه اللياقة والهيئة الحسنة، وأن تستقل الترام نفسه، وتحدب على حبيبين ترفضهما عربة النساء، على ألا يكون هناك وباء في ذلك الوقت، وألا يكون الحبيب مغادرًا إلى مدينة أخرى.

حاولت تخمين عمر بلوزة المرأة لتعرف إن كان هذا لونها من البداية أم بهت بسبب البِلى، وحاولت أن تتذكر عمر بلوزتها هي، وفكَّرت إن كانت ستصاحبها حتى الخامسة والستين، وكيف سيكون لونها. وسرحت في دولاب ملابسها لتتذكَّر قطعًا من أيام الجامعة، لم تزل كالجديدة، ولم تزل تحبها وترتديها كلما أعادت تقلبات الموضة قَصتها إلى الواجهة.

لم تقو على البقاء خارج عيني الأخرى، فعاودت التوغل إلى أبعد أعماقها في محاولة مستميتة لفتح زقاق تنفذ منه إلى حياتها.

# 3

مع تزايد سرعة الترام إلى الحد الأقصى الذي يبلغه في المنطقة الوسط بين محطتين، بدت العربة طائشة مثل أرجوحة تعلو وتهبط بعنف فوق سكتها الحديدية. اندفعت فريدة حتى كادت تلتصق بالمرأة، ودهمتها هبَّة عطر، هو ذاته عطرها الذي لا تغيِّره؛ فاضطربت وكادت تقع. تشبثت يداها بالقائم لتتحاشى الاقتراب. لكن عينيها لم تفارقا عيني الأخرى، ومع كل هزّة قوية تقفز بخيالها إلى مرحلة من ماضيها. ترسم طفولة المرأة؛ شكلها عندما كانت ابنة عامين، عندما فقدت قواطعها اللبنية. ابتسمت عندما رأت المرأة أمامها وقد صارت طفلة هتماء.

ـ كيف كانت تنطق حروف مقدمة الفم؟ كيف صارت حياتها في العشرين، في الثلاثين، في الخامسة والأربعين؟

لم تتمكن من الاسترسال في تخيلاتها، بفعل ترام آخر مرق في الاتجاه المعاكس فضاعف اهتزاز الترام، وتسبب في وقف اشتباك العيون.

بعد أن استعادت فريدة توازنها، احتوت المرأة بنظرة هجومية شاملة، في محاولة جديدة للتوغل في حياتها:

ـ عندما تغادر هذا الترام، ستلتقي برجل ينتظرها.

وأخذتها خيالاتها إلى شكل الرجل الذي ينتظر السيدة. لابد أنه فارع الطول. وخجول العينين، بشعر رمادي، وأصابع جميلة. لابد أنها سعيدة معه إلى الدرجة التي جعلتها منطلقة وصريحة ومستعدة لاحتضان سعادات الآخرين هكذا.

«لا تقدر على العطف إلا المرأة السعيدة في الحب» مقولة لا تعرف فريدة مدى صدقها، وها هي تحاول أن تقرأ ما بعيني المرأة لكنها ليست بارعة جدًا في تفسير لغة العيون، وهذا الاهتزاز يشوشها حتى أنها بدأت تتصور أن المرأة التي تقف قبالتها ليست سوى صورتها هي منعكسة على زجاج النافذة، والرجل الذي تتخيله ليس سوى يوسف بعد عدة سنوات.

لكن كيف؟ ها هي المرأة. تراها أمامها. تتشبث مثلها بقائم الاستانلس، وبين قبضتيهما تستقر قبضة يوسف. حاولت أن تنقل قبضتها لتلامس قبضة المرأة، لكن خوفًا تلبسها فتراجعت.

أخذ الاهتزاز يتخافت مع تناقص السرعة إيذانًا باقتراب المحطة، وها هي المرأة الواقفة أمامها، التي تشبهها تمامًا، تحتضنهما معًا بابتسامتها.

تحت سطوة ذكرى مبهجة ركّزت فريدة نظرتها على قبضة يوسف المتشبثة بعمود العربة؛فتبدى لها عري أصابعه، وأحست بالغيرة؛ فأخذت عيناها تطاردان نظرة المرأة لإبعادها، وغمرتها موجة جديدة من العرق، بينما تتذكّر إحساسها بالحركة المتقابلة ليديه على جنبيها تحت عصف الماء، حيث يحلو له أن يتوهم أن مسارات يديه على جنبيها في كل استحمام من إبطيها حتى قُرب الركبتين، هي التي تُجسِّمها.

منذ عامين فقط، لم يكن بمقدورها أن تتصور كيف يمكن أن تستحم مع رجل، لكن يوسف اقتحم عليها حمامها ذات مرة؛ فأحبت ذلك جدًا ولم تصارح به مخلوقًا.

تناقصت السرعة للغاية، واحتدمت جلبة الكوابح، وارتفعت أصوات الاحتجاج مجددًا في البقعة السوداء، مع عاصفة من الإشاحات بالأيدي تستعجل مغادرة الرجل.

وكان يوسف قد استدار بالفعل، وبمجرد أن انفتح الباب قفز إلى الرصيف. وسمعت فريدة المرأة تستحثها بحماسة:

- وراءه، لا تتركيه.

# ١٥ يونيو ٢٠٢٠

ـ كنا نعتقد أنه فيروس يصيب الجهاز التنفسي فحسب، لكن تبين أنه يخبط عشوائيًّا في أي اتجاه: المخ، القلب، الكلى، الكبد، البنكرياس.

قال الطبيب، بينما يسلِّم رامي حنَّا وصفة الأدوية التي ستواظب عليها غيداء في الفترة القادمة، ثم التفت إليها:

ـ أنت ست قوية، وستعرفين كيف تتعايشين مع هذا.

تحركت شفتاها من تحت كمامتها تريد أن تقول شيئًا، بينما تشبثت يدها بيد رامي، الذي سمع بفراسته ما أرادت أن تقوله:

ـ طيب يا معفوغ.

تظلل وجهه بابتسامة خنقها قبل أن تلحظها غيداء أو يراها الطبيب.

لثغتها التي يُحبها تقلب الراء غينًا. ويُصرُّ رامي على أن تلك اللثغة لن تترك للزمن فرصة ليجعلها عجوزًا. تضحك، ويُقسم أنه لا يجاملها:

ـ صدقيني، لم أر في حياتي عجوزًا لثغاء.

ولم تكن تصدقه، وترميه من تحت أهدابها الطويلة بنظرة ساخرة. حتى وهي بهذا الوهن لم يزل اعتقاده راسخًا بأنها لن تشيخ.

خرج وراء الطبيب ليستوضح منه الأمر بعيدًا عنها. أخبره أن لديها مضاعفات في القلب والكبد إلى جانب الانخفاض الحاد في كفاءة الرئتين، بينما تأثر مركز الكلام بجلطة صغيرة في المخ أذيبت بشكل جيد. سأله رامي:

ـ متى تتوقع التحسن؟

ـ الفيروس جديد، ولا أحد في العالم يستطيع أن يجزم بالمدى الذي ستصل إليه آثاره.

لاحظ الطبيب قلق رامي، حاول أن يطمئنه دون أن يعده بأنها ستتمكن في القريب من الحركة أو الكلام بشكل طبيعي. وشدد على ضرورة الراحة التامة، وألا تستعجل الوقوف.

ـ ستتألم حينما تحاول ملء رئتيها بالهواء، ولكن يجب أن تتمرن على ذلك، ولابد من أسطوانة أكسجين بجوار فراشها للاستخدام وقت اللزوم.

سمع رامي تعليمات الطبيب الأخيرة بصعوبة، تحت صوت خرخشة السمَّاعات المبثوثة في سقف ممرات المستشفى، ولم تلبث أن انطلقت بأذان العصر.

لوَّح الطبيب ومضى، وعاد رامي إلى الغرفة. جلس على الكرسي بالقرب من رأس غيداء. التقط يدها. حاولت التملص منه فقبض على أصابعها. طواها واحتوى راحة يدها في كفه؛ فأحس بانتفاضات عصفور خائف، بينما كانت عيناها معلقتين بالسقف.

جال ببصره في الغرفة بانقباض، كأنه يكتشف الآن فقط كم هي ضيقة وعديمة التناغم. دولاب رصاصي من الصاج ضرب الصدأ أطرافه، جدران زرقاء متقادمة الطلاء، مستنسخ من لوحة زخرفة هندسية بنية مع تذهيب رخيص، فوق كنبة سوداء جلدية.

ـ ما همَّ لو كانت أجمل. أية لوحة ستعيش منسية في مكان مؤلم كهذا!

الآن فقط انتبه إلى أن هذا النمط من اللوحات منتشر في كل مكان بالمستشفى، تشكيلات من دوائر ومربعات ومعينات. لابد أنهم وجدوا في هذه الزخارف شيئًا يناسب كل المرضى. سيبدو تكرار الأشكال الهندسية المتراكبة متاهة للمرضى اليائسين تشغلهم عن التفكير في فراغ ما بعد الموت، وبخلوها من التشخيص لن تستفز مشاعر الرافضين للتجسيد في الفن طمعًا للجنة. استغرقه التفكير في تشكيلات لوحة الغرفة، لأنه في الحقيقة يهرب من رؤية حالة رثاء للذات ترتسم بعمق على ملامح وجه غيداء ويحس لهيبها يحرقه. قبَّل يدها وأراحها إلى جوارها وقام ليجمع أشياءها التي تراكمت يومًا بعد يوم. فتح الدولاب وأخذ يتأمل البلوزة الحرير سكرية اللون والبنطلون الجينز المطويين على الرف الصدئ، مفكرًا في معضلة تغيير ملابسها.

دخلت ممرضة. هنأت بالسلامة، وجرَّت حامل المحلول إلى خارج الغرفة، ثم دخلت مرة أخرى وطوت جدول المريضة، ثم وقفت لا تفعل شيئًا غير تأمل محتويات الغرفة، كأنها تتوقع أن يسرق شيئًا. وبينما كان يُلقي بأشياء غيداء كيفما اتفق في الحقيبة. تلقى اتصالاً من قسم المحاسبة لكي يدفع المتبقي. اعتاد تلقي هذه المكالمات قبل الثانية عشرة ظهرًا على مدار خمسة وثلاثين يومًا. يطاردونه ليودع مبلغًا كل يوم أو يومين. كان المبلغ مهولاً في أيام العناية المُركَّزة الخمسة عشر، وعندما انتقلت إلى غرفة عادية هبط المبلغ إلى الربع، لكنه ظل أغلى من سعر أفخم غرفة فندقية ترى النهر الرصاصي.

عندما تعرَّف على أسعار الخدمة لحظة إيداعها المستشفى، تساءل:

ـ ماذا يفعل الفقير عندما يمرض؟

لكنه في داخله يشعر بالغبطة لكونه قادرًا على الدفع، والأهم أن هذا السعر المرتفع برهان عملي جديد على حبه لغيداء.

حصل على المخالصة النهائية، وساعده المحاسب في الاتصال مع مصنع مستلزمات طبية لتدبير أسطوانة أكسجين يضعها احتياطًا في البيت. في طريق عودته إلى الغرفة، اشترى الأدوية التي وصفها الطبيب من صيدلية المستشفى.

وجد غيداء جالسة على حرف السرير في البلوزة والبنطلون تلهث كأنما توقفت لتوها عن الجري، بينما يحيط بها ثلاثة من طاقم التمريض. رمقته بنظرة امتنان واختلاجة من زاويتي فمها. سحبها الممرضون من السرير إلى الكرسي المتحرك، وشرع أحدهم يدفعه، بينما حمل رامي الحقيبة ومضوا إلى المصعد الخلفي الذي هبط بهم إلى المرآب حيث تنتظر عربة الإسعاف.

المسافة بين المستشفى والبيت أقل من خمسة كيلومترات، لكن العربة قطعتها في نحو ساعة، ظل رامي خلالها يستعطف السائق مرَّة ويكشِّر له مرَّة كي يكف عن إطلاق البوق الذي يروِّع غيداء دون أن تُفسح له السيارات الأخرى في الشارع المشلول.

هتف بضيق:

ـ من أين كل هذا الزحام؟ ألسنا في إغلاق؟!

وصلت السيارة أمام باب العمارة في عتمة ما بعد الغروب، ولم يزل الهواء سميكًا لزجًا يمكن الإمساك به. فتح المسعفان الباب الخلفي، وسحبا المحفة بغيداء. خرج البواب وزوجته للمساعدة، كان المُسعفان قد نقلا غيداء إلى الكرسي ذي العجلات. وبدآ يدفعانها وخلفهما رامي. أخذ سالم يحجل أمامهم في المدخل ليجلب المصعد، وحملت طِعمة الحقيبة وسارت خلف الركب. لم يتسع باب المصعد للكرسي الطبي؛ فأحضر سالم كرسي خيزران خفيفًا. نقلها المسعفان إليه، وصعدا بها مع رامي.

شرع المصعد في التحرك بحشرجاته وخبطاته المعتادة عند كل طابق، حتى وصل إلى الطابق التاسع. فتح رامي باب الشقة وتبعه المسعفان بغيداء. أراحاها فوق سريرها، وانصرفا.

بعد قليل وصل سالم وطِعمة التي تلقفت منه الحقيبة ووضعتها على أرضية الغرفة ثم وقفت بجوار السرير، دون كمامة. اختلجت شفتا غيداء، وقد ضايقتها نظرة الرثاء التي وجهتها إليها زوجة البواب الشابة.

تعرف غيداء أن طِعمة تحبها جدًّا؛ فهي الوحيدة التي لم تُغيِّر معاملتها لها منذ جاءت إلى العمارة عروسًا، حتى أنها استضافت الأطفال أسبوعًا عندما اضطرت طِعمة للسفر فجأة لرؤية أبيها في احتضاره.

ترك رامي المرأتين معًا وذهب إلى المطبخ مستشعرًا في نفسه قوة جديدة. نظر في الثلاجة، أحصى النواقص. نادى سالم وكلَّفه بالشراء، ثم عاد إلي الغرفة، كانت طِعمة قد ساعدت غيداء في تغيير ملابسها.

ـ تأمري بحاجة يا هانم؟

قالت طِعمة، وأشارت غيداء شاكرة؛ فانصرفت وراء زوجها، وجلس رامي بجوار غيداء.

ـ لن أنام بعيدًا عنك.

همس؛ فنظرت بامتنان شرح قلبه.

ـ لقد دجَّنتها، ولم تسعد تستغني عني!

هتف كالطفل الهائم بين الكويكبات. استلقى بجانبها وطوَّقها بذراعه. أخذت أصابعه تعبث بظهرها من فوق قميصها القطني، متلمسة غبطة عودتها إلى البيت. وسرعان ما تحولت غبطة الأصابع إلى بهجة في القلب.

خلال مدة المستشفى أحاطها باهتمام لا تمنحه إلا أم، لكن الممرضات وقفن بينهما، يُقدمن لها حاجاتها الأكثر خصوصية. الآن صارت بين يديه، سيلبي طلباتها بنفسه.

ـ ما أحقر الإنسان!

قال لنفسه، مقاومًا لؤم فرحه السري بعجزها، وتذكَّر في الحال أمنيات مارسيل پروست الشريرة للسيدة دو غرمانت بأن يصُبَّ اللهُ عليها الفواجع، وأن تفقد كل مالها واعتبارها وكل امتيازاتها التي تفصلها عنه، وأن تلجأ إليه. يحفظ رامي كلمات پروست عن ظهر قلب كقصيدة، الكلمات التي كان سيقولها لها عندما يستقبلها تحت سقفه ويسبغ عليها رعايته. يعرف رامي حتى موقع ذلك المقطع في صفحة يسار من بدايات مجلَّد «جانب منازل جرمانت».

ـ لكنني استقبلت غيداء تحت سقفي على الأقل.

فكَّر مواسيًا نفسه، لأن وضع پروست مع معشوقته ظل على حاله. سيدة ثرية لم تفقد طلَّتها الملكية، بالرغم من الأمنيات الشريرة للمراهق المغرم!

وسرعان ما أحس بالخذلان منتبهًا إلى أنه ليس من قرر استقبال غيداء تحت سقفه؛ فهي التي قررت البقاء في في هذه الشقة بكل كبرياء الكونتيسة دو جرمانت، ولم يملك سوى الاستجابة لرغبتها، وسرعان ما تعمق وجودها إلى حد أن صار عاجزًا عن تصور الحياة بدونها، بينما لم تمنحه في أي وقت الإحساس بأنها في حالة اضطرار.

# 2

حتى في لحظة الوهن هذه، أخذت تتململ من ملامساته، وأخيرًا أزاحت يده.

تمتم بأسى:

ـ يبقى الوضع على حاله!

عندما جاءت إلى هذه الشقة منذ ثلاثين عامًا، تصور أنها امرأة أخرى ستزوره مرة أو مرتين. كان في الخامسة والأربعين، ولم يعد ذلك الموسيقار المعروف، بل مجرد رجل ربعة خسر الحرب مع كِرشه، شعره أبيض في نصاعة القطن، شقرة وجهه لا تستسيغها الكثير من النساء.

في تاريخه الفني القصير لحْنٌ أغنية لمطربة مشهورة، وعدد من الألحان الناجحة لبعض نجوم الصف الثاني الذين غيَّب الموت بعضهم، وانزوى البعض الآخر تحت وقع ما يسميه «السوقية» التي يرى أنها طبعت الأغنية كما طبعت كل شيء. حاول أن يجد طريقًا آخر مع عدد من المؤدين الذين صاروا موضة بين الطلاب وبقايا مثقفين لم يهجروا مدينة الغبار. لبى متطلبات ذلك الجمهور بألحان يتسم بعضها بالتكلف والصلف، والبعض الآخر يلفه مزيج من رتابة الموسيقى الصوفية وانكسارات الرثاء الموروثة من نواح الأسلاف على المقابر. قبل أن يخلد للنسيان، عاش سنوات قليلة كزورق صغير يكافح الغرق في عرض محيط صاخب.

لديه ميراث جيد، بالإضافة إلي القليل الذي يصله من حقوق بث ألحانه؛ فلم يجد نفسه مضطرًّا لعمل شيء غير القراءة والاستماع إلى الموسيقى واستقبال أصدقائه في سهرات تمتد حتى الصباح. بين وقت وآخر يقع على فتاة تتطلع إلى الغناء، تقضي معه فترة ثم تكتشف أن ما يقدمه لها ليس ما تريده فتهجره وتمضي إلى المجهول أو إلى الشهرة المدوية. كان لا يعرف إن كنَّ يرفضن المُلحن فيه أم الرجل. اهتدى إلى حيلة لا تُعرِّض قناعاته الفنية للإهانة؛ ينشر سطرًا واحدًا في باب الإعلانات المبوبة بصحيفة كبرى «مطلوب سكرتيرة» فيبدأ تليفونه هياجًا يستمر أيامًا وليال. بأذنه الموسيقية يزن المُتصلة. يلتقط جدية النبر لدى الساذجة الراغبة في وظيفة حقيقية؛ فيستبعدها من البداية:

ـ للأسف، انشغلت الوظيفة يا مودموزيل.

يرد، ويغلق الخط فورًا، أما من يفهمن الإعلان على النحو الذي يقصده، فيحدد لهن مواعيد اختبار. عندما تحضر الواحدة منهن، يجلس معها، يعد لها كأسًا، ويبدآن في التعارف، دون أن يأتي أي منهما على ذكر للوظيفة.

بينهن من تكتفي بالمقابلة الواحدة ومن تكرر الزيارة بين الحين والحين. وقليلات منهن كن ينتبهن إلى العود المعلق على حائط غرفة نومه، ويطلبن منه العزف ليرقصن.

كانت غيداء حالة مدهشة. هزَّته أرستقراطية صوتها.

ـ صباح الخيغ. الموسيقاغ غامي حنا؟

ارتبك. من أين عرفت اسمه؟ سكت؛ فتابعت:

ـ أفندم!؟ أتصل بخصوص الإعلان.

رغم الصيغة الرسمية، التقط في نبرها لين مقام الكرد، حدد لها موعد المقابلة، وعندما فتح الباب وجد شابة أنيقة في منتصف عقدها الثالث تجر حقيبة سفر.

ـ أنا غيداء، مديغة مكتبك يا أفندم.

أفسح لها؛ فدخلت وردَّت الباب وراءها. وقف يتأمل المرأة المزهرية. هذا ما أوحى به فستانها القطني برسوم لأوراق شجر من الأزرق الملكي وظلاله على خلفية بيضاء. نقشة مزهريات البورسلين الصينية القديمة تمامًا. تقدَّمت، بلا تهيب، وجلست محاذرة من التراب على الكرسي؛ فرأت حرجه. بادرته:

ـ لا بأس، كل هذا سيختلف.

ورغم ما قالته أفلتت منها نظرة جزعة إلى الفوضى حولها، نظرة تلقائية ولم تلبث أن عادت إلى طمأنينتها؛ كمن يقابل كلبًا مفلوتًا في الشارع، ثم يتأكد من طيبته. لكن توترها الخاطف كان كفيلًا بمضاعفة إحساس رامي بالحرج.

كان لم يزل واقفًا يتأملها، وأحس برغبة في القيام بحركة لا يدري ما هي، تقدم نحو البار الصغير في ركن الصالة، وأخرج نوعين من الكئووس وضعهما على الطاولة دون أن يعرف ما سيُضيِّفها. عاد إلى البار متحيرًا، ثم أخرج زجاجة ويسكي عمرها ربع قرن كان يحتفظ بها لمناسبة فخمة قد تقع ذات يوم، وجلس في مواجهتها.

أشارت إلى الكأس الربعة:

ـ الكلاسيك لو سمحت.

فتح الزجاجة وهمَّ بالصبِّ. أشارت بيدها فأوقفته.

ـ أوفغ ذا غوكس لو سمحت.

ـ نعم، نعم Over the rocks آسف، أشرب سِك، وكان يجب أن أسألك.

قال، كأنه يترجم لنفسه لُثغتها، وقام مرة أخرى، أحضر سطل ثلج صغير.

القصة التي تحكيها إحداهن عن نفسها فور وصولها متعته الأولى. يسألها عن نفسها، وينصت ليختبر قدراته على كشف القصة الحقيقية من الزائفة، ويعرف بعد ذلك كيف يتصرف مع هذه أو تلك. لكنه لم يجرؤ على سؤال هذه الشابة عن شيء؛ كأن خلفها بابًا مغلقًا ستقع كارثة إذا انفتح. أخذ يحكي لها عن نفسه بهشاشة لاجئ، بينما تجلس كسيدة في منزلها، تضع ساقًا على ساق. ساقان فاتنتان لم ير نبلهما من قبل. اعترف لها بلعبة الإعلان الصغيرة، كأنه يستعطفها لتسامحه.

ـ بالعكس، الإعلان سبب لقائنا. وسأكون مديغة البيت وحسب، لن أُكلِّفك شيئًا. استأنف مقابلاتك، أوقع بمن تشاء. أنا لا أسمع، لا أغى، لا أتكلم.

أحس أنه في مواجهة قوة احتلال لطيفة. قام معها يُعرِّفها بالشقة. اختارت غرفتها، وجرَّت حقيبتها إليها. رتَّبت ملابسها في الدولاب، وفرشت السرير، ثم عادت إليه. استأنفا الحديث حتى حل المساء.

دعاها إلى مطعم في جزيرة وسط النهر، الوحيد في المدينة الذي يقاوم مدًا عاميًا يغمر تقاليد المائدة وذوق الخدمة.

ـ سنشرب على ذوقي ونأكل على ذوقك.

اقترح، هذه القسمة في محاولة للإمساك بزمام المبادرة في شيء. امتدحت النبيذ الذي طلبه، وأخذت تحدِّثه عما يُميِّزه عن غيره: مواصفات الكرم، درجة نضج العنب، طريقة التخمير واشتراطات الحفظ التي تهتم بها الشركة إلى درجة أنها تطلب من عملائها ضمانات لحسن التخزين.

يأكله الفضول ليعرف قصتها؛ من هي، ومن أين خرجت له. يدفعها لتتكلم؛ فتروي حكايات جميلة غير التي يريد، بدأ يسألها بشكل مباشر، فأجابته بهدوء:

ـ ألزمت نفسي أولاً، وبدورك يجب ألا تسأل.

استمرت الأمسية مباراة بينهما حول أنواع الشراب وما يصاحبها من طعام. ما يناسب الشتاء، وما يناسب الصيف، ما يُستحب للشاب وما يجب للعجوز، بناء على توازنات البارد والساخن، الجاف والرطب في كل مشروب.

يلاحظ تهذيبها مع النُدل، وأناقتها في تذوق الشراب والطعام؛ فيحس أنها تربت في الشقة المقابلة.

ـ كيف قاومت طغيان قلة الذوق الذي غمر جيلها من كل الأوساط؟!

ينظر إلى عينيها النجلاوين، ويتأمل جلستها بظهر مستقيم، مقاومًا انجذابًا غريبًا يُفقده التركيز في حديثها.

وكما يلجأ طفل نزق إلى تقويض اللعبة عندما يوقن بهزيمته، مدَّ قدميه وأمسك بإحدى قدميها بين كاحليه. تمنى أن تقف معترضة ليستريح، لكنها لم تغضب ولم تشجعه. تركت له قدمها، فظل متمسكًا بها بين كمَّاشة كاحليه، بينما ينظر إلى وجهها برجاء الابتسامة. لم تبتسم ولم يهتزَّ صوتها أو تفقد خيط حديثها. تحسس كرشه مستشعرًا الهزيمة. وعصاه الكلام.

عندما خرجا من المطعم مد لها ذراعه فتأبطته. كان الوقت ربيعًا، ولو طاف العالم معها على هذا الوضع فلم يكن ليحس بالتعب، لكنها بعد بضع خطوات أشارت إلى تاكسي. عندما دخلا إلى الشقة سألها إن كانت تُفضِّل أن يتناولا كأسًا، فوافقت. توجهت إلى غرفتها، غيَّرت ملابسها، وعادت في بيجامة قطنية أنيقة بلون وردي، وكان رامي قد غيَّر ملابسه هو الآخر.

جلسا يشربان في صمت. عندما فرغت كأسها أشار يسألها إن كان لها في القليل مرة أخرى. وافقت. صبَّ لها أكثر مما وعد وناولها الكأس، ثم صبَّ لنفسه.

انتقل إلى جوارها على الكنبة حتى حفَّت ملابسه بملابسها، فلم تتحرك. لبث يُفكِّر في الخطوة التالية، ثم مدَّ يده إلى رأسها، يُمشِّط شعرها بأصابع مترددة فابتسمت، لمَّهُ في عقصة بيده، وأمال رأسها للوراء، وحاول تقبيلها. هبَّت واقفة، وبنبر هادئ سألته:

ـ ستحتمل وجودي على اتفاقنا أم لا؟

ـ آسف.

لم يزد على ذلك، ومضت إلى غرفتها. أكمل شرابه وحيدًا، ثم قام إلى غرفته. وضع رأسه على الوسادة، مبحلقًا في السقف متوترًا. كيف يقبل بقاءها بهذه السهولة؟ ماذا يمكن أن تصنع به في الليل؟ تدهمه موجة خوف تغمرها موجة رغبة، يكسرها تراخي أعصابه، ولم يلبث أن أسلمه خَدَرُ الشراب إلى خدر النوم.

عندما فتح عينيه في الصباح تذكَّر وقائع الليلة وأحس الخوف مثل رشقة سكين. انطلق إلى باب الشقة، متوقعًا أن تكون قد سرقته وتركت الباب مفتوحًا، لكنه وجده مغلقًا كما هو.

استدار وأخذ يتفقد الشقة. وجد حقيبة يدها في مكانها كما تركتها بالليل، وقف للحظات أمام باب غرفتها المغلق، ثم انصرف هادئًا إلى غرفته وقد غمره فضول سعيد. نظر إلى الساعة. قدَّر أنه لم ينم أكثر من ساعتين. استلقى على سريره مجددًا، واستسلم للنوم.

استيقظ في نحو العاشرة، غادر فراشه مغتبطًا هذه المرة أكثر منه قلقًا. كانت جالسة في الصالون، تشرب شايًا. فيها شيء مُبهج ينتشر منها ويغمر الأشياء، إلى درجة أنه رأى جدران الشقة تبتسم، فأحس بالغبطة، رغم أنه لا يحب أن يستيقظ في وجود أحد، رجلاً كان أو امرأة.

أعادت إليه أحاسيس لم يعرفها إلا في مراهقته تجاه صافي جارته المهاجرة. ربما لهذا استعذب وجود هذه الشابة إلى درجة الإحساس بأنه في الوضع الطبيعي الذي عاشه معها في حياة سابقة، وقد عادت ليستكملا حياتهما.

دبَّ الوهن في ذاكرته وتضببت صور الماضي. لكن صورة غيداء في ذلك الصباح البعيد ظلت زاهية مثل رسوم مقبرة فرعونية مكتشفة للتو، يراها ويستنشق روائحها بكل اضطراب البهجة والقلق.

كانت جالسةً في بيجاما سماوية قصيرة، وفي يدها فنجان شاي من طقم فاليري الكلاسيكي الذي لم يستعمله منذ عشرين سنة على الأقل. شقَّت الفرحةُ بوجودها قلبه، ولم تلبث الغيرة أن جرحت فرحته تحت وطأة الإحساس بأن أشياءه متناغمةٌ مع غيداء أكثر من تناغمها معه. وداهمه شعورٌ بالاستياء من شقته التي خانته بانتمائها إلى هذا الحد لامرأة تستيقظ فيها للمرة الأولى.

ـ ياه!

تنهَّد، مندهشًا من تمثُّله ذلك المشهد إلى درجة أنه لم يعد الرجل المُرهق الذي تخطى السبعين، ولم يعد ما يلاصقه جسد سيدة هدَّها الوباء، بل دفء الجمال المُلغز للشابة التي رآها قبل ثلاثين عامًا جالسة في الصالون مترفعة كأنها الحياة، تضع ساقًا على ساق، وترفع الفنجان المزين بلوحة قرية ألمانية، ثم تلامس بشفتها الجميلة غير المخضبة حافته. تذكَّر حتى أنها كانت تشرب من جهة الكنيسة في اللوحة، وكان برجها ينتهي عند حافة الفنجان، ما جعله يتمنى بطفولية شريرة أن يخزَّ البرجُ شَفتها.

# 3

حملته الذكريات إلى مقام السيكا. مرحًا، خفيفًا ربت على كتفها ليُصدِّق أنهما في البيت مجددًا بعد أيام المستشفى العصيبة. ابتسمت وفتحت عينيها.

وأحس برغبته في الذهاب إلى الحمَّام؛ فتزحزح بلطف ومضى. جلس على التويلت دون أن يغلق على نفسه الباب. وبينما يستمتع بالارتياح التدريجي انتبه إلى أنه سيتوجب عليه أن يؤدي هذه المهمة لشخصين إلى أن تتعافى غيداء.

عاد وسألها؛ فأومأت موافقةً. أقعدها على السرير، وألصق به الكرسي ذا العجلات، انحنى وحملها من تحت إبطيها، همَّت معه. أراحها على الكرسي، وأماله باتجاهه، وأداره على محوره، ثم بدأ يدفعه بحرص. توقف لصق قاعدة التويلت، وأخذ بيديها فوقفت على ساقين مهتزتين، احتضنها داعمًا صمودها، ولم يدر ما يفعل بعد. مدت يدها وجذبت المنشفة المعلقة على الحامل، نشرتها على فخذيها، ووضعت أطرافها في يديه، ثم مدت يديها تحت قميصها وأنزلت السروال. ساعدها في الجلوس، وانسحب خارجًا وأغلق عليها الباب، ومضى مبتعدًا.

تعمَّد أن يُسمعها وقع خطواته لكي تشعر بالارتياح. وقف يتأمل الصالة التي بقيت على حالها طوال وجود غيداء في المستشفى. كان يخرج في الثامنة صباحًا، ولا يعود إلا بعد أن يطردوه في التاسعة مساء. يدخِّن سيجارتين مع كأس ويسكي وينام، ثم يغادر في الصباح التالي دون أن يحرك شيئًا من مكانه. واظب على ذلك طوال الأيام الخمسة والثلاثين، رغم أن غيداء كانت في عزل تام أول أسبوعين، ولم يكن يراها إلا خطفًا من وراء الزجاج. لكنه لم يكن ليستطيع أن يبقى في البيت.

ـ أُجنُّ لو بقيت بعيدًا عنها.

قال عندما سأله أصدقائه عن جدوى مكوثه في المستشفى طوال اليوم.

أخذ يتأمل الكرسي الهزَّاز الذي تحب وضعه أمام باب الشرفة لتراقب الشارع، تغير كساؤه مرتين ولم يتغير مكانه الذي تحبه امرأة أصبحت حقيقة هذا المنزل، دون أن يعرف رامي عن حياتها السابقة شيئًا. حافظت طوال الوقت على ردها الوحيد:

ـ أغجوك، لا تفتح هذا الباب.

لم تكن بحاجة لأكثر من الرجاء بنبر خفيض حاسم لكي يبتلع سؤاله. لم تهدد أبدًا بالانصراف، لكنه كان يخشى ذلك ويتحاشى دفعها إليه.

بعد عام من وجودها استأنف نشر الإعلان بين حين وحين. يرد على مكالمات طالبات الوظيفة ويستقبلهن. يختلي بالواحدة في غرفته، وغيداء تتحرك بكل أريحية في بقية الشقة.

كانت العمارة مختلفة في ذلك الوقت. لا أحد يسأل عن زائرات أو عن مقيمة استقرت بين يوم وليلة. كان السُكَّان متناغمين يهتمون ببعضهم البعض من باب الود والاطمئنان الضروري وليس من أجل التلصص والمراقبة. خلال ثلاثين عامًا باع الكثير من الملاك القدامى شققهم وهاجروا، أو انتقلوا إلى فيلات في الضواحي، وحل محلهم آخرون، لم يحمه من تطفلهم إلا أنهم وافدون على العمارة، ولم يخطر ببال أحدهم أن غيداء ليست زوجته.

ترك لها الوقت الكافي في الحمَّام، ثم اقترب من الباب، سعل خفيفًا وانتظر، وبعد لحظات سمعها تدعوه:

ـ ادخل.

أعادها إلى الغرفة. حشد لها الوسائد، وحملها من تحت إبطيها وأنزلها على السرير، هيأ ساقيها في وضع مريح، ثم خرج وجلب زجاجة ماء وكأسًا. صبَّ لها، وشرب ما تبقى منها، ثم وضع الزجاجة والكأس على الكوميدينو، واستدار إلى الجهة الأخرى واستلقى بجوارها.

احتضن كفها بكفه. تعرف أنه يستريح لهذا، وتظل ساكنة حتى يسحب يده. ربما لم تنتبه إلى أن عادته هذه بدأت بعد الليلة الوحيدة التي انصهرا فيها. وقد عاش كل هذا الوقت يحوم حول الوقائع البسيطة لتلك الليلة، لكي تحنَّ بنفسها إلى الأهم، الذي لا يُحب أن يستجديه، أو يستجدي توضيحًا لسبب عدم رغبتها في تكراره.

في أية مناسبة يتناولان فيها محشي ورق عنب يسألها:

ـ تذكرين كيف كان لذيذًا مع شوربة الكوارع في تلك الليلة؟

ولا تطلب الشيش طاووق في أي مطعم إلا ويقول، بعد أن يتذوقه:

ـ لا، لا، ليس سخيًّا كما تذوقناه في تلك الليلة.

تأخذ الحديث إلى اتجاه آخر، وأحيانًا ما تكون ناسية، وتسأله ببراءة لا مبالية:

ـ أية ليلة؟

يشعر بالحرج؛ فيبحث عن علامات عادية أخرى، لا تضغط عليها أو تجرحه:

ـ الليلة التي عدنا فيها من المطعم مشيًا.

إن لم تقل إنها تذكّرت، يظل يعدد علامات تلك الليلة، حتى يقول:

ـ عندما توقفنا في وسط الكوبري نستقبل نسيم النهر.

ترد:

ـ نعم، نعم، غناء الصيادين وتصفيقهم.

تذْكر الغناء والتصفيق، وتحاصر الذكرى عند هذا الحد. كانا قد توقفا في منتصف الكوبري الذي يربط الجزيرة بالمدينة في تلك الساعة المتأخرة، استندا إلى الإفريز يداعبهما هواء الليل الأخير بينما ينظران إلى الموج الخفيف يلتمع كحزوز من الفضة فوق سطح النهر الرصاصي الساكن، طوَّقها بذراعه، ثم أدارها فدارت معه واشتبكا في عناق طويل. لا أحد غيرهما كان على الكوبري، لكن غناءًا بعيدًا أخذ يقترب فوق الموج، ظلا متعانقين، بينما يرتفع الغناء، ثم انقطع وحل محله ضحك وصفير. انتبها إلى تلويحات احتفالية من الماء، قبل أن يمرق مركب الصيادين تحت الكوبري، ليظهر من الجهة الأخرى دون أن يكف الرجال عن الصفير والتلويح.

كان ذلك بعد نحو شهر من استقرارها معه، خلاله كان لغز غيداء وفتنتها يواصلان النمو لحظة بعد أخرى ويومًا بعد يوم، ينام بغبطة تلك الفتنة ويصحو على حيرة ذلك اللغز، ينتقل بهما من الشرفة إلى المطبخ إلى الصالون، مثل لحن ينمو في روحه دون أن يتجسد.

في تلك الليلة، ذهبا إلى المطعم الذي أحبته للمرة الثانية، وعادا منه مشيًا، يشابكان أصابع يديهما طوال الطريق. كان الوقت ربيعًا، والقمر يلوح مكتملاً في سماء لا تصفو فوق مدينة الغبار إلا نادرًا. وعندما عادا إلى الشقة سار وراءها إلى غرفتها فلم تمانع.

لم يطرف لهما جفن حتى شروق الشمس، كانت مبتهجة وراضية. أدرك ذلك من سبابها. لم تترك كلمة فاحشة إلا وسبته بها، أما هو، فكان سابحًا في الفضاء.

عندما قتلهما التعب، استلقيا كما يستلقيان الآن، مقدمة السرير تدعم ظهريهما، يمسك بيدها وتغمره سعادة كالنور.

ـ لقد عرفت أخيرًا المرأة التي سأشيخ معها.

قال في تلك الليلة. كان ذلك تصميمًا من طرف واحد سرعان ما هدده القلق، عندما طلبت منه الانصراف إلى غرفته.

استيقظ عند العصر، وذهب إليها مبتهجًا. لم تكن قد غادرت فراشها بعد، لكن بدا له أنها أعادت بناء الحواجز اللامرئية بينهما في ساعات نومه. قعدت على السرير مقرفصة بينما نشرت اللحاف

إلى صدرها، جلس على حرف السرير وحاول أن يتناول يدها فردَّت يده.

ـ ألم تكن ليلة جميلة؟

ـ أرجوك، كان ذلك خطأ كبيرًا، لننس هذا الأمر.

قالت بحسم، بينما كانت عيناها تعنِّفانه من دون غضب عميق، مثلما تُعنِّف عينا الأم طفلها حتى لا يعود إلي إزعاجها. أراد أن يقول كلمة تسترضيها، لكن كرامته منعته، أراد أن يغضب لكن خوفه من فقدها ألجمه. اكتفى بالصمت، موقنًا بأنها ستلين فيما بعد، وأنه سيعاود الإمساك بجملة لحنها الأولى التي هربت.

سنوات طويلة يحاول أن يستميلها دون جدوى، وظلت «تلك الليلة» اسمًا لسعادته القُصوى وجرحه الذي لم يندمل. تعلَّم الاكتفاء بمتعة التنميل اللذيذ عندما يستلقي بجوارها ساكنًا يدغدغه مجالها المغناطيسي، واللثغة في صوتها المهدئ، بينما يبلغ أقصى بهجته، عندما يحتوي يدها في يده، ثم يتلمس أصابعها واحدًا فواحدًا، وكأنه يعدها ذهابًا وعودة.

هذا التعايش لم يجعله ينسى ألم السؤال الذي يمنعه الكبرياء من طرحه. صار يستزيد من لقاءاته مع النساء. وبعد أن تنصرف المرأة العابرة، يسقط في الكآبة؛ يذهب إلى غيداء، يجلس أو يستلقي بجوارها، ويحتضن يدها في يده، تتركها له، بينما يظلا صامتين، لكنه يسمع صوت سبابها في تلك الليلة. صاخبًا، فاتنًا:

ـ يا مجغم يا غامي!

يطول الصمت، وهي تعرف أنه يريد أن يتحدث، ولا ينتظر إلا إذنها بإشارتها المعتادة:

ـ هيه؟

يبدأ في الكلام، يذكر كل ما يلزم وما لا يلزم من التفاصيل عن المرأة التي كانت بين ذراعيه منذ دقائق، يحكي ليغيظ غيداء، ليستميلها، ليتوهم أن امتلاكه للمرأة الأخرى امتلاك لها. وهي، بحياد خبير، تحلل له سلوكهن، وأقوالهن وحكاياتهن. وتُصدر أحكامها:

ـ إن كنت حقًا تخشى الحب، احذر هذه.

أو:

ـ هذه تكذب لابتزازك.

ـ كيف عرفت؟!

ـ من صياحها المُفتعل، هذا صياح شغـ...

أيًّا كانت نظرتها إلى هذه أو تلك، تستقبلهن باشة، وعندما تستلطف إحداهن تتخذها صديقة، تستبقيها للعشاء معهما، وتساهم في توثيق علاقتها برامي، لكنه يعيش بندبة تلازمه اسمها غيداء، المرأة التي جعلت كل شيء في شقته سعيدًا إلا قلبه.

سيدة حقيقية، تعرف كيف تجعل الشغَّالة التي تأتي للتنظيف أكثر انضباطًا. لا تهاون مع بصمة إصبع على طبق أو ذرة غبار تحت سجادة. أصدقاؤه صاروا يحبون بيته لأجلها، تدللهم بمائدتها التي تشبه لوحة فنية حتى لو لم تضع عليها سوى المُقبِّلات. تأخذ معهم كأسًا في بعض الأحيان، ثم تنسحب إلى غرفتها وتستغرق في القراءة. يستحلفه أصدقاؤه ليحكي عنها. يتحدث عن قهره من صدها؛ فلا يُصدِّقونه:

ـ أنت؟! من عرف مئة ألف امرأة؟!

ـ لو استأنست أحدكم امرأة، لعرف كيف تصبح فريدة بين مئة ألف امرأة.

منذ عشر سنين توقف عن نشر الإعلان. مات صديقه الصحفي الذي كان يتولى إجراءات النشر، ولم تعد هناك صحيفة كبرى بالأساس.

ـ أين ذهب كل هذا؟

يتذكر كيف كان إقبال الفتيات غريبًا حتى أنه كان يهاتف بعض أصدقائه:

ـ تعال، ساعدني في إجراء الاختبارات.

تساقط الأصدقاء، ولم يعد في حياته سوى غيداء. يطبخان معًا، يشاهدان الأفلام، يمسك بمجلد من «البحث عن الزمن المفقود» وتمسك بـ «الأمير الصغير» الذي لا تمل من إعادة قراءته في الفرنسية والعربية والإنجليزية، وكلما أبلت نسخة اشترى لها رامي غيرها. أحيانًا يمسك بالعود ليدندن لها لحنًا أو يعلمها كيف تُفرِّق بين المقامات عندما تستمع إلى أغنية. يستلقي بجوارها حتى يشعر بتلامسهما؛ فيصلها توتره، تزحف سنتيمترات قليلة، ليبدو ابتعادها عفويًّا، لكنه يعود ليقترب بعفوية مماثلة.

مع الوقت غامت رغبات جسده، أصبحت مثل شعاع شمس يتسلل من خلف زجاج مضبب يمرر الضوء من دون حرارة. لم يعد متأكدًا ماذا يريد فيما تبقى من حياته، لكنه يعرف تمامًا ما فاته فيما مضى، وتسامح مع كل الفقد، وتنازل عن الكثير من الأسئلة التي لم يجد لها جوابًا، إلا واحدًا، ولن يستريح قبل أن أن يسمع من غيداء جوابًا: لماذا لم ترغب فيه ثانية؟

# 4

مذلةُ السؤالِ التي يعرفها، هي سببُ غبطتِه برؤيتها ضعيفة ومحتاجة إليه الآن، لكن الاحتياج لا يبدو عليها بل عليه. داعب وجنتها بأنامله، وهمس في أذنها:

ـ لقد استأنستني وردة.

شددت قبضتها على يده وابتسمت.

ميَّز في صوت جرس الباب ثقل يد سالم؛ فهرول إليه، تلقف منه المشتراوات، ودخل بها إلى المطبخ. بدأ في إجراءات التطهير المعقدة التي لم تفلح في منع الفيروس من التسلل وإصابة غيداء. أفرغ الأشياء في أواني الغسيل، وغيَّب الفوارغ البلاستيكية في الكيس الكبير بسلة القمامة، كأنه يُخفي دليل جريمة. وبدأ في عمليات الغسيل بالماء والخل ثم بالماء الجاري. ولم ينته من ترتيب الأشياء حتى سمع الجرس ثانية. وجد مندوب شركة المستحضرات الطبية. أدخله بما يحمل، ووقف يتأمل كيفية توصيل أسطوانة الأكسجين بالقناع، ويستمع بانتباه إلى شروحه، ثم قاده إلى غرفة غيداء ليضع الأسطوانة بجوارها.

بعد أن انصرف الرجل أعد عشاءً خفيفًا يناسبها، وأعطاها الأدوية، وعندما استلقت أطفأ النور واستلقى بجوارها بأذن مستعدة لأية نأمة تصدر عنها. رأى نفسه في الحلم شابًّا في مدينة ساحلية صغيرة كانت مصيف أسرته في صباه. وكان واقفًا على اللسان الممتد داخل البحر، وكانت راحتا يدين تغميان عينيه، ويدرك تمامًا أنهما يدا غيداء.

استيقظ قبل طلوع الشمس، وجدها متمددة بجواره يرتفع صدرها ويهبط بانتظام. عندما استيقظت حكى لها الحلم، مطت شفتيها، وبالنظرة التي يعرفها قالت عيناها:

ـ عشم إبليس في الجنة.

ـ وعد.

ردَّ بقوة متحديًا تشاؤمها، طالبًا منها اعتبار حُلمه نذرًا واجب التنفيذ عندما تسترد قدرتها على الوقوف. هزت رأسها بتسليم متشكك، فأعاد كلمته:

ـ وعدٌ.

قالها بصوت رقيق هذه المرَّة ليستعطف القدَر.

# ٢ أبريل من العام الأول للخوف

قبل أن يعرف العالم شيئًا عن الوباء، فرض المؤرخ بديع العطَّار على نفسه العزلة.

بدا حجره الطوعي في ذلك الربيع اللاهب مزحة، وجعله محل تندر، قالوا: الكتب لحست عقله. لم يكترث لما يقولون. كان غارقًا في رعبه.

الرجل الذي عاش خمسين عامًا يُنقِّبُ عن عجائب الأخبار، لا تهزه بشاعات حرب أو مجاعة أو وباء، بل الخوف. يعتبره الأبشع من كل بشاعة، لأنه يبدد تضامن الضحايا ويحولهم إلى ضباع تتداعى لنهش من يسقط من بينهم، يتلذذون برؤية لحمه بين الأنياب لمجرد أنهم ليسوا مكانه.

ما إن استقر الخوف حتى تشوَّش المؤرخ، وتراءى له أن المدينة تتداعى. أشياء كثيرة طيبة تختفي، بينما تنتشر الثعابين والسحالي والأبراص في كل مكان: ضئيلة، سريعة الحركة، قلقة، متشفية.

ـ اختبئ، يصبح ما تخافه غير موجود!

هكذا هتف به خياله الطفولي في لحظة إلهام، لكن متى تمكن الناس من تحقيق ما يحلمون به!

لم يطاوعه قلبه في البداية على الاختباء، وظل مؤرقًا بالمصير، خائفًا من رعونة التاريخ، حتى تداعت روحه ودبَّ الوهن في جسده الضخم، وبدأ يهذي بكلام غير مترابط.

حمله ولداه إلى الأطباء، ولم يجد المعالجون الفيزيائيون والنفسيون علاجًا لرجل يسألونه عن علته فيهذي بجمل مفككة عن قلعة المعلم يعقوب، هزيمة المماليك، قصيدة الكعكة الحجرية، وفجأة يحاكي بصوته صوت وشيش التليفزيون عندما يتشوش الإرسال، ويصف انقطاعًا للصورة، ووميضًا للشاشة، يدقق فيه فيرى بداخله حشرات تجري.

بخلاف تخصصاتهم الدقيقة، يعرف الأطباء خلل التليفزيونات العتيقة. جميعهم لديهم خبرة الانقطاع المفاجئ للصورة والصوت وحلول التنميل والوشيش الغامض مكانهما؛ فهم يُصرِّون على الاحتفاظ بتلك الأجهزة القديمة في عياداتهم، بينما تحَّول الناس إلى الشاشات الرقمية المسطحة منذ سنوات عديدة. هل يخافون الحسد؟ ربما! الله أعلم بأسبابهم، لكنهم كلهم لا يُغيِّرون التليفزيونات ذات الإلية الضخمة التي تعمل بنثار نترات الفضة، وعندما يحدث عطل فالحل بسيط، ولا حل غيره: إطفاء التليفزيون ثم إعادة تشغيله بعد أن يهدأ، مع ذلك استغربوا شكوى المؤرخ واعتبروها هراءً لا يستحق ضياع وقتهم ونقوده، لكن الطبيب النفسي الأخير وصف له العلاج:

ـ اغلقه، ودعه يستريح، ثم افتحه.

شكره بديع من كل قلبه، ونشط ذهنُهُ الطفولي؛ فرأى نفسه ممسكًا بزرٍّ يضغطه لوقف التاريخ المختل. وصار هذا الحلم سلواه؛ فبدأ يتماثل للشفاء. لكنه، في ساعات تفكيره كراشد، يكتشف أن طموحه مستحيل؛ فيسقط في الإحباط. وبعد صراع طويل بين أحلام الطفل وأفكار الراشد انتهى أخيرًا إلى الحل الممكن: الاختباء.

اشترى ما أمكنه من المعلبات والخبز المحمص والفواكه المجففة والشاي والبن وزجاجات الماء والمشروبات الأخرى وعبوات من رغوات الحلاقة ومعاجين الأسنان وفُرشًا جديدة، وقطن تنظيف لأذنيه، وبعض الأدوية البسيطة للصداع وقطرة للعين. اختار بنفسه كل ما تصور أنه سيحتاجه ودقَّق في تواريخ الصلاحية. هذا التدقيق لا يمكن أن يهتم به البواب أو زوجته التي لا تُتقن سوى التشاطر على رجال العمارة.

بعد أن هيأ نفسه لعزلة طويلة. أغلق عليه باب شقته والشبابيك، وأحكم إغلاق باب غرفة مكتبته الضخمة على مصادر بلائه. وما إن أحس بالهدوء حتى سقط عنه نصف عمره، يسترخي على كرسيه الهزاز فيتذكر افتتانه بسهير، التي صارت المرحومة. أحيانًا يتوغل في حديقة ذكرياته حتى يصل إلى طفولته، ويرتد منها إلى طفولتي ولديه، حازم ويونس، وتثير السعادة رغبته في فنجان شيكولاتة ساخنة، ينهض بصعوبة لإعدادها، ويفتح التليفزيون على قناة للأطفال، لم يلبث أن تعلَّق بها، ثم بدأ البحث عن القنوات المشابهة، حتى في لغات لا يجيدها. تعرَّف على تاريخ مختلف للعالم، بالأحرى تاريخ خيالي مازح ينتصر فيه الضعفاء، يجري في عالم من المروج الخضراء والأشجار التي لا تفقد أوراقها في الخريف والزهور المبتهجة في كل المواسم والعصافير التي لا تكف عن التغريد.

لم يعد يعرف الليل من النهار، مشدودًا طوال الأربع وعشرين ساعة إلى شاشة العجائب حتى أنهكه الخيال، وأخذه الفضول إلى نشرة أخبار. شاهد واحدة ؛ فأخرى، وبدأ ينسي حذره. ترك نفسه للقنوات العالمية التي فاجأته ذات يوم بأخبار كوفيد١٩.

لم يكن الفيروس العجيب قد تجاوز عتبات مدينة ووهان الصينية، ووجد بديع العطَّار في نفسه حماسًا جديدًا لمزاولة التأريخ في هذه المساحة الصغيرة والبعيدة.

ـ سأتخصص في ووهان.

قال لنفسه بحماسة طفولية. فتح غرفة مكتبه، متجاوزًا مخاوفه، وبدأ عمله بجديته العلمية المعتادة. اطلع على تاريخ المدينة، اقتصادها، عدد سكانها، ليتمكن بعد ذلك من معرفة نسبة الضحايا بين العدد الكلي للسكان. شاهد العديد من مقاطع الفيديو للحياة في ووهان : المتنزهات، المطاعم، المراقص، الحدائق العامة، الأبراج السارحة إلى السماء، ديكورات مداخل تلك الأبراج وتقسيمات شققها ومكاتبها. دقق في الشوارع، وفيما فوقها من طبقات الكباري العملاقة المتلوية. صار في

ووهان بكل جوارحه، وعندما قررت سلطاتها فرض العزلة أحس بأنه عالق هناك بكل شعور الفرح الذي يخالج السائح عندما يمنعه إضراب الطيارين من مغادرة مدينة أحبها.

لم تلبث سُلطات ووهان أن شدَّدت إجراءات العزل. أُطفئت أنوار المطاعم والمراقص وأضيئت بدلاً منها أنوار مستشفيات عملاقة أُنشئت على عجل. ثم بدأت الأحداث العجائبية تترى وتلهب فضوله الطفولي. أطباء يرتدون بدلات بيضاء تشبه بدلات رواد الفضاء يحملون على ظهورهم أنابيب الأكسجين الموصولة بأقنعتهم، عمال نظافة ببدلات صفراء، يحملون على ظهورهم خزانات المطهرات وفي أياديهم رشاشات سائل حليبي، يُصوبونها على الأرضيات والجدران في شوارع تجوبها عربات إسعاف يقال إنها تحمل جثثًا.

وجد نفسه في قلب تاريخ مراوغ. في لحظة تبدو الوقائع خيالية، وفي لحظة يبدو الخطر حقيقيًا تمامًا، ويهدد باجتياح الحدود بين المدن والدول.

# 2

بدأ العطَّار يستشعر الخوف من الوباء، متذكرًا الطاعون الذي ضرب المدينة المطمورة الآن تحت تلال القمامة على مشارف مدينة الغُبار.

كانت ثاني أكبر مدن العالم، وأفنى ذلك الوباء مئتي ألف إنسان من سكانها الخمسمائة ألف. وصف مؤرخها قسوة الوباء عليها في ذلك العام «كان إذا دخل الدار يفنيها حتى يعلِّقوا مفاتيح الدار في رِجل النعش». في تلك اللحظة الحزينة من تاريخ المدينة البائدة ولد المثل «ياوارث مين يورثك» حيثَ كان الوارث يرحل قبل أن يتسلم ميراثه، وربما يكون وريثه قد سبقه إلى الموت. وبعد قرون عديدة ورثت مدينة الغبار ذلك المثل عن نظيرتها البائدة، يحفظه سكانها حتى الآن عن ظهر قلب ولا يعملون به.

- لا شيء تغيَّر.

همس لنفسه إذ تذكَّر أن الأوبئة دائمًا من الشرق، ودائمًا في أقدام الجنود والتجار. الحرب هي السبب. يخوضها الجنود مرغمين والتُجَّار باختيارهم، وبينما ينخرط الجنود في الموت والتجار في الربح، يتدخل الوباء ليحسم الحرب، أو يتدخل بعد نهايتها ليتمم نِصاب الضحايا.

طاعون أثينا الذي دمَّرها في القرن الخامس قبل الميلاد، أودى بحياة مئة ألف شخص دخلها من ميناء الإمداد بيرايوس في السنة الثانية من حرب بيلوبينيز بين المدينتين اليونانيتين أثينا واسبرطة. طاعون المدينة المطمورة تحت مدينة الغبار وصلها في منتصف القرن الرابع عشر قادمًا من الشمال، لكنه كان قد سافر في البداية إلى أوروبا مع التُجَّار من آسيا، وبعد أن أتى على نصف سكانها استدار على عقبيه، وضرب الضفة الجنوبية للمتوسط. انفلوانزا العقد الثاني من القرن العشرين التي ابتلعت خمسين مليونًا في بعض التقديرات ومئة مليون في تقديرات أخرى، عبرت من آسيا مع الجنود العائدين من الحرب العالمية الأولى التي يُقدَّر عدد ضحاياها المباشرين بسبعة وثلاثين مليونًا. وحملت هذه الضربة اسم الدولة الأوروبية التي لم تنخرط في تلك الحرب.

التاريخ يمزح أحيانًا. يعرف العطَّار عنه هذه الخصلة المؤسفة؛ فقد ضربت العطسة العُظمى للقرن العشرين الدول الأوروبية المنخرطة في الحرب، وأوقعت فيها خسائر ضخمة قبل أن يمتد الوباء إلى إسبانيا المفتوحة أمام الجميع. وبينما حظرت رقابة الحرب نشر أعداد الضحايا حفاظًا على الروح المعنوية، كانت إسبانيا المحايدة تنشر أخبار الإصابات بين سكانها بشفافية، فتعيد الدول المتحاربة نشر تلك الأخبار، لأن لديها صحفًا، والصحف بحاجة إلى أخبار حقيقية أحيانًا. وهكذا حمل الوباء اسم الإنفلوانزا الإسبانية!

ما حدث في الماضي يصدُق على الحاضر، وسوف يصدُق على المستقبل: لا وباء دون شَدَّة الجندي وحاوية التاجر. وها هي الحروب على مرمى حجر من مدينة الغبار التي لا تملك من أمرها شيئًا، والصين مصنع العالم في السلم والحرب.

ما إن توصل بديع العطَّار إلى هذا اليقين، حتى نبت في قلبه أمل صغير في محاصرة الوباء؛ فالعالم ـ وإن تمسَّك بوحشيته ـ تخلى عن كثير من فقر الماضي وقذارته.

صارت هناك اشتراطات صحية في كل مكان. الصينيون توقفوا عن البصق في الشارع منذ عقود، ولم يعودوا عمالاً بؤساء خلف خطوط الجيوش المحاربة أو تُجَّارًا على فطرتهم يحملون العدوى دون أن يحسوا بها. ها هم تحت ناظريه في ووهان، يحاربون المرض بكفاءة وباشتراطات نظافة وتأمين على أعلى مستوى.

بعد ليلة من التقلُّب فوق أشواك الاحتمالات المختلفة لم يعد المؤرخ قادرًا على الرؤية. تضببت الشاشة أمام عينيه؛ فرفع زر إغلاق التليفزيون وخلد للنوم في مكانه. رأى الثعابين والسحالي والأبراص في كل مكان، صغيرة، سريعة الحركة، قلقة، ومخيفة، تحاول أن تتسلق الكنبة.

كان في كابوسه يدرك تمامًا بأنه نائمٌ على كنبته المفضلة في صالة شقته، لكن الشقة هي التي بدت في أحد أبراج ووهان. وفجأة تحولت الكنبة إلى حشية على الأرض والصالة إلى زنزانة. تسلقت الحشرات الحائط مبتعدة عنه، وتسربت جميعها من الكوَّة الصغيرة في جدار الزنزانة، ولم يكد يحس بالارتياح لابتعادها ويأخذ شهيقًا حزينًا، حتى غزاه خوف ودهشة جديدين تحت نمو سريع لحجم رأسه. أخذت جبهته تتقدم فوق عينيه، وفجأة طقَّت الجبهة وارتفعت فروة رأسه مثل كبْوت سيارة أفلت من قفل التأمين. وتطايرت مع الانفجار الفجائي أجزاء من مخه، تجاهل ذلك النثار، ومد يده لتثبيت فروة الرأس في مكانها فلم تحبك، كما يحدث لكبوت السيارة عندما يتشوه بفعل التصادم. وبينما يحاول يائسًا إعادة فروة رأسه إلى وضعها اكتشف أن ما يمنعها من الالتحام السليم هو نثار من مخه التصق بباطنها؛ فأخذ في إزالته. الغريب أنه كان يفعل ذلك بثبات، دون هلع أو حزن، مُقدِّرًا أن تلك الفتافيت ماتت ولن تعود للالتحام بالمخ، بل ستكون مصدرًا لتعفنه لو ردها إلي مكانها.

عندما استيقظ من ذلك الكابوس، لم يكن خائفًا ولا حزينًا. وبعد لحظات أدرك أنه في شقته وليس في زنزانة فأحس باعتدال مزاج لم يحسه منذ بدأ عزلته. تنفَّس بعمق مطمئنًا إلى سلامة هواء الشقة المخزون، مفكرًا في الخفة القاتلة للكوفيد الذي لا يحتاج إلى أكثر من الهواء لكي ينتقل ويعربد. لا يستهدف الضعفاء من الجنود والعمال وبوابي العمارات بشكل خاص. لا تلزمه سوى عطسة يعطسها أحدهم في خُصِّ أو قصر، بينما يحتاج الطاعون إلى البراغيث التي تؤاخي بين الفئران والفقراء، وتمارس الكوليرا التمييز نفسه ضد الفقراء، تضربهم بسبب مياه أو أطعمة ملوثة بفضلات شخص مصاب. والحمى الصفراء يلزمها بعوض يسعى ذهابًا وإيابًا بين المستنقعات ووجوه البشر. وللمفارقة؛ فالخفة الشرسة التي منحت الفيروس وجهه المضيء بوصفه أكثر الأوبئة عدلاً، هي ذاتها التي تزرع الشك في وجوده.

تعرض الأخبار صورًا لمرضى في الرمق الأخير أو لجثث، لكن الأجساد المريضة والميتة تبدو سليمة وكأنهم في غفوة هانئة؛ لا قيء، لا دمامل أو تشوهات مما تسببها أوبئة الماضي. أحيانًا لا يُصدِّق المؤرخ ما يراه. بعض المؤرخين يعتمد الصورة كأحد طرق الاستدلال، لكن العطَّار ليس من بين هؤلاء، ولا يثق بالصورة أبدًا.

ـ ألستُ مُحقًا؟

يهتف لِنفسه كما لو كان به صممٌ، لكن هذه صارت عادته خلال سنوات عزلته. يفرح فيصيح صيحة طفل ظفر بصديقه المختبئ في لعبة الاستغماية، ييأس فتصدر عنه أنّة جريح منسي خلف جيش منسحب، يغضب فيصمت كأسير.

لو مرَّ أحدهم أمام باب شقته في لحظة صياحه لظن أنه عاد إلى جنونه، لكنه يصرخ ليتأكد أنه لم يزل حيًا، وأنه شخص حقيقي في عالم حقيقي، بينما يتأمل على الشاشة سيلاً من الصور، كأنها مشاهد في حلم أو أحداثًا تجري على كوكب آخر. بناءات خفيفة وخيام في الخلاء يقال إنها مستشفيات ومعازل، لكنه لا يستطيع قراءة مشاعر أحد ممن يظهرون فيها. وجوه المسعفين غائبة تحت أقنعتهم، لا يعرف حتى في أي اتجاه ينظرون، تبدو له حركتهم الصامتة خيالية مثل حركة رواد الفضاء المنعتقين من الجاذبية. حتى المرضي يبدون مثل رواد فضاء مستمتعين بنوبة نومهم بالمركبة.

اللغط الكبير حول الوباء قبل أن يلمسه المؤرخ عزَّز الشكَ في قلبه. فيما مضى كان الناس يلمسون الموت بأنفسهم قبل أن تعترف السلطات بوجود وباء أو تمنحه اسمًا. يتوالى المرض والموت السريع بأعراض واحدة ويسري الرُعب وتكثر التساؤلات، وتتمسك السلطات بالإنكار، وعندما تعترف بوجود «مرضٍ ما» تأخذ في التهوين منه، ولا ترفع الرايات السوداء إلا عندما تصبح بلا ضرورة.

بعض الأوبئة لم يكن يعثر على اسمه إلا بعد أن ينتهي ويصبح شيئًا من الماضي، عندئذٍ يجلس المؤرخون وقد منحهم الاطمئنان طاقات شعرية لا يمكن أن يمتلكوها في أوقات الهلع؛ فيُسمون طاعونًا بالموت الأسود، أو يصفون حُمى بالقرمزية.

كوفيد ١٩ أخذ المسار المعاكس. انطلقت الأخبار عن وباء اسمه معروف سلفًا، قبل أن يظهر فعله. كل ما هنالك صور ملونة محلِّقة في الهواء مثل فقاعات صابون ينفخها طفل لا مرئي!

لماذا لا يكون هذا الكوفيد إحدى مزحات الخيال؟ قبل أن تصبح الصين مصدرًا للأوبئة كانت دائمًا موطنًا للعجائب. أشجار تلد بشرًا، وظباء تُرضع أطفالاً، وقرود تتكلم.

الجانب الطفولي في بديع العطَّار يحب حكايات الصين العجيبة؛ فأخذ يلاحق أخبار عطسة ووهان الخيالية بشغف، سعيدًا بأنه يتابع قصصًا ستدخل فيما بعد كتب الأطفال لا كتب التاريخ.

# 3

في لحظة أخرى بدا لعقله أن الأمر بعيد عن المزاح. تلاحقت الأخبار عن تفلُّت الوباء من قلب الصين إلى أطرافها، ومن أطرافها إلى العالم. وسرعان ما تواترت الأنباء عن نشاط وحشي للفيروس المخادع في الكثير من المدن. أعلنته منظمة الصحة العالمية وباءً، وقد أخذ يتوسع، وبدأ ظهور المسعفين والمُطهرين في كل مكان، وأخذت مشاهد الدفن تتوالى على شاشة التليفزيون، ثم انطلقت أخبار عن مقابر جماعية لا يرتكبها سفَّاحٌ سرًا، وإنما حكومات ديمقراطية، بعد أن عجز صناع التوابيت فيها عن تلبية حاجة الأعداد المتزايدة من الناس إلى الموت.

ورغم حقيقة الموت التي لم يعد المؤرخ يتشكك بها، لم تتحول الافتراضات حول طبيعة الفيروس إلى حقائق. كل يوم يطلقون افتراضًا يتطاير سريعًا مثل المطهرات، ويحل مكانه افتراض آخر:

- أعراضه سخونة وألم وفقدان حاسة الشم.
- أحيانًا يأتي ويقتل بلا أعراض.
- مميت للمرضى وكبار السن فحسب.
- مميت لكل الأعمار.
- يقتل بعد اكتمال تليف الرئة.
- يقتل بالمغص في البطن.
- يقتل فجأة بجلطة في القلب أو الدماغ.
- من يتخطى أسبوع إصابة يتجاوز الخطر.
- قد يتعافى المريض، ثم يموت بعد شهر وشهرين.
- يعيش أيامًا.
- يعيش ساعات.
- يعيش يومًا.

ـ لا ينتقل إلا بعطسة المصاب في وجه السليم.

ـ يسبح في الهواء دون حاجة إلى العطس.

ـ يختفي في الفواكه والخضراوات ويعلق بالملابس، في هواء المصعد، في لمسة مقبض باب، في التراب الذي نمشي عليه، ويلتصق بسطح زجاجة المُطهِّر ذاتها. أحس المؤرخ العطَّار أن في الأمر تهويلاً؛ فهتف:

ـ الموجود في كل مكان ليس موجودًا في أي مكان.

هي حكمة الزِن القادمة من الصين ذاتها، لم يخترعها المؤرخ، لكن ذاكرته استدعتها ليستريح، لكن الحقيقة المُرَّة سرعان ما كذَّبتها؛ فالوباء ينتشر، وشروط النجاة تكاد تكون مستحيلة. لا تصافح، لا تأكل شيئًا قبل أن تغسله بالخل، لا تلمس شيئًا دون أن تغسل يديك، والأدهي، ألا تلمس وجهك. هذا هو الجنون بعينه؛ فلمس الوجه سلوك راسخ في التكوين الجيني للبشر، حتى أن الأجنة تلمس وجوهها داخل الأرحام.

تطلق عطسة المريض الواحد نصف مليون جسيم فيروسي. وبات المؤرخ متأكدًا من إخفاق محاولته لإيقاف ساعة التاريخ الخربة. يحاول الطفل الذي بداخله الإنكار، فيصدمه المؤرخ الراشد بالحقائق التي لم يعد من سبيل لإنكارها.

# 4

رفعت منظمة الصحة العالمية الراية السوداء، وسرعان ما انتزع الوباء لنفسه اسمًا أثقل: «الجائحة» ثم تحولت الأنظار من مكافحة الجائحة إلى معركة حول أسبابها. هل تولَّد الفيروس تلقائيًا نتيجة عادات الصينيين الغذائية؟ هل تم تخليقه في معمل؟ وفي أية ظروف؟ عمدًا أم نتيجة تجربة للحرب البيولوجية خرجت عن السيطرة؟

وسط إحتدام اللغط حول الأسباب نجحت ووهان في مطاردة الوباء وأجبرته على الانسحاب خارجها. أُضيئت أبراجها في الليل بأنوار ملونة احتفالاً بالنصر، وتزينت الشوارع بعبارات التهنئة. رأى المؤرخ وميض الحروف الصينية في الليل فبدت له مثل عقارب وسحال تتسابق في الهرب، بينما تواصلت هزائم الأمم الأخرى أمام زحف الجائحة.

لم يعد بديع العطار يُنفق وقتًا في طبخ أو غسيل أو نفض التراب عن كتبه. يفتح علبة تونة أو سردين، ويُسخِّن رغيفًا ويجلس أمام التليفزيون طوال اليوم يُراقب ما يُقال حول الفيروس، يُمسي موقنًا من عدم وجوده فينام، ويصحو مؤمنًا بوجوده، لكن الخوف قَدَرُ الإنسان، ولم يعد المؤرخ يستطيع مواصلة الهرب من السؤال:

ـ هل وصل الوباء إلى مدينة الغبار؟

معدل الإصابات حول العالم دائم التغير، احتل في النشرات مكان مؤشرات الأسهم في بورصات المال والذهب التي لم يعد لها وجود. مدن تتصدر سباق الرعب، ومدن تتراجع، ثم تعود لتتقدم من جديد، دون أن يظهر اسم مدينته. أخذ يبحث عنها فلا يجدها. القلب الطفولي لمؤرخ راشد لا يتحمل رؤية وباء جديد يضرب مدينته دون أن يكون لديه دور في إيقافه.

ترتفع نسبة الأدرينالين في دمائه، لأن غياب الذِكر يعني إما الأمان وإما مذابح بشعة يخشى العالم أن يراها. يسمع دقات قلبه كالطبل. يُقشِّر قطعة شيكولاتة مُرَّة، يستحلب طعم السعادة والهدوء، ثم تُلح عليه الفكرة من جديد.

ـ كيف؟

يتوالى ذِكْرُ مدن كبيرة وأخرى صغيرة لا يتجاوز سكانها عدد سكان شارع من شوارع مدينة الغبار.

ـ هل تبخرنا فلم يعد يرانا أحد؟!

أخذ يتابع غياب اسم مدينته بانكسار، وينتظر ذكرها برعب، حتى أوردت النشرات تصريحًا على لسان مسئول المنظمة العالمية: «تعرف المنظمة موقع المدينة على وجه التقريب، لكنها لا تعرف شيئًا عن أوضاع الجائحة فيها».

بعد مدة، لم يعد العطَّار بحاجة إلى نشرات الأخبار. وصلته رائحة الموت. شقيقه وديع الذي يقطن العمارة نفسها هاتفه ليطمئن عليه، وحدَّثه عن صعوبة تدبير سرير بمستشفى، وعن التكلفة الباهظة لعلاج غير مجدٍ ينتهي غالبًا بالموت.

ـ الناس أصبحت تُفضِّل الموت على خراب الديار يا بديع.

وأخذ يُعدِّد له أسماء معارف قضوا بعد أسابيع في غرف العناية الفائقة.

ـ لا جدوى من العلاج إذًا.

قال لينهي المكالمة مع وديع. وبعد أن أغلق الهاتف، عاد الصمت إلى التمدد حتى بدأ يضغط على الجدران. سار المؤرخ إلى الواجهة الزجاجية. أزاح الستارة ووقف يتطلع إلى الشارع. كان المساء في بدايته، ورغم ذلك لم يسمع غير صوت الريح، ولم ير أي شيء يتحرك، حتى أن خياله الطفولي زيَّن له أن يخرج ليتفقد التاريخ بعد أن تجمَّد. ارتدى البالطو كيفما اتفق فوق البيجاما، وغادر مخبأه للمرة الأولى.

مضى في قلب الشارع بين صفين من السيارات المغبرة، تستلقي فوق أسقف بعضها كلابٌ لم تأبه لوجوده، كأنها تماثيل جامدة على أوضاعها منذ الأزل. مدَّ بصره بعيدًا؛ فأبصر تحت الأنوار الصفراء للميدان تمثال المحارب القديم جامدًا على قاعدته بيده المرفوعة لتحية طابور خيالي من جنوده.

دون أن يُغيِّر من خطوته، أخذ يتقدم وحيدًا. لمح متشردًا في عتمة فرجة صغيرة بين سيارتين مضطجعًا فوق بطانيته الرثة، لم يستعطه المتشرد أو يأت بأية حركة تدل على حياة. تجاوزه المؤرخ مبتهجًا، يمسح بعينيه جانبي الشارع الخالي، ثم رفع رأسه مستطلعًا نوافذ العمارات؛ فرأى ظلالاً ملتصقة بالستائر لا تتحرك.

هتف بصوت عال:

ـ الله أكبر، الله أكبر، هذا ما أردت!

ردد الفراغ صدى صوته. وبكى حتى أُغشيَ عليه.

# ٣ مارس ٢٠٢١

التليفزيون مفتوح على قناة «ناشيونال جيوغرافيك» كالمعتاد، على درجة الصوت التي توصل إليها الدكتور فريد عبدالمحيط قبل سنوات من اجتياح الوباء للمدينة. ولم يكن الوصول إلى هذه الدرجة الصوتية بالأمر السهل.

في الحقيقة، لا شيء سهل في هذه الحياة، والأشياء التي تبدو لنا بسيطة هي فقط تلك التي لا تعنينا. نقطة ماء تتسرب من صنبور في مطبخ شقة لن يعتبرها مشرد مشكلة على الإطلاق، حصاة دخلت في الحذاء أو شوكة من سمكة انحشرت في الفرجة بين ضرسين، لا تعني أحدًا غير مرتدي الحذاء أو صاحب الفم.

عندما بدأ حياته الجديدة بعد الستين كان الصوت أكبر مشكلة واجهها فريد. بعد تجارب طويلة توصل إلى ضبط التليفزيون على هذه الدرجة التي تحجب ضجة الشارع وتؤنس أوقات وحدته الطويلة، وفي الوقت ذاته لا يكون مصدر ضجة بديلة تشتت انتباه زائراته في اللحظات الهشة وسهلة الخدش. كان عليه إرضاء زائرات متعددات، بعضهن متقلبات الأمزجة، أو متغيرات الظروف. امرأة لا تحب أن يفاجئها رنين تليفونها المحمول المتروك في حقيبتها خارج الغرفة، وهي نفسها تريد ألا تغفل عنه في يوم آخر.

ساعده حسه بالعدالة على التوفيق بين رغباته ورغبات زائراته الكثيرات. لكن ذلك السلام الصوتي الحساس والهش يظل تحت رحمة الطفرات التي تجتاح الغرفة غدرًا مع الفقرات الإعلانية، وتلك هي المعضلة التي لم يجد لها حلاً؛ فصوت التجارة لابد أن يكون عاليًا. حتى ناشيونال جيوغرافيك لم تترفع عن ذلك الغدر الصوتي، لهذا يحتفظ بالريموت كنترول قريبًا من يده لإخماد أية معركة تنشب فجأة بين قطيع من النمور وقطيع من وحيد القرن.

على أية حال، مشكلته الليلة ليست الصوت، بل الرائحة. استيقظ في الصباح على رائحة نتانة تظهر وتختفي. أخذ ينشِق بعمق، يملأ صدره بالهواء، يتيح لمنخريه ثم رئتيه تذوق الرائحة قبل أن تتفتت ويزفرها بقرف وغيظ، ثم يستنشق مجددًا متتبعًا دروب اختفائها. عجز عن تبين مصدرها، فصارت هوسًا. بدت له الرائحة نفَّاذة تشير إلى أن مصدرها في ذروة استقرار الموت واكتمال التفسخ. أجهد خلايا شمه فتخدَّرت؛ ثم فقد الهواء مرونته وأثقل تنفسه، وبدا أنه سيأخذ بالتحجر في رئتيه ويقتله.

تناول الريموت. خفف درجة الصوت، وأخذ يتشمم بحذر أكبر، ثم أخفى الصوت تمامًا، فبدت الحيوانات الخرساء على الشاشة، كأنها تتقافز في حلم، دقق النظر في العشب تحت أظلافها ومخالبها لعله يرى الجيفة التي تنشر هذه النتانة لكنه لم ير شيئًا غير عادي على البساط الأخضر.

التقط أنفه خيط الرائحة من جديد، مقتحمة أحيانًا، متسللة في أحيان أخرى مثل رشح ماء ينضح من جدار، يتجاهلها فتسيطر، يحاول تتبع مصدرها فتأخذ بالتباعد وتتفلت من أنفه.

مع توغل الليل صارت أثقل وأكثر استمرارًا كأنها عثرت أخيرًا على المسار الصحيح إلى أنفه وعبَّدته. وأخذ ثقلها على رئتيه يشتد، ثم بدأ يشعر بالألم، ولم تلبث الرائحة أن اختفت مرة أخرى فأحس بالرعب.

عرف من قبل هواجس الموت وحيدًا لأسباب مختلفة ليس من بينها فقدان حاسة الشم، وكانت المصادفة تلقي إليه دائمًا بحبل النجاة في مكالمة من زائرة:

ـ أنا في الجوار.

ـ اصعدي.

في بعض الأيام كان يستقبل أكثر من زائرة. لكن ذلك صار بعيدًا، كأنه مجرد أحلام وتهيؤات لم يعشها حقيقة.

ـ مسخرة!

هتف حانقًا إذ طالما تمنى أن يفقد حاسة الشم التي أفسدت حياته، لكن فقدانها في ظل الوباء يعني إصابة مؤكدة. أخذ يتخيل رائحة جثته لو مات في أيام العزلة هذه. ستكون مثل تلك الرائحة الشنيعة التي افتقدها للتو، سيشمها الجيران، ويفرون من أمام الباب دون أن يُبلغ أحدهم عن الأمر، أو حتى دون أن يصارح نفسه بأنه شمَّ شيئًا غير عادي.

ـ من يريد أن يشم ورطة؟!

مثانته، التي اعتادت أن تهديه مخرجًا في لحظات خوفه، توترت فجأة.

نهض إلى الحمَّام، ووقف يبول في حوض الوجه مراقبًا نفسه أمام المرآة، نفخ بالون صدره بحذر وزفر بقوة فأحس بارتياح، عمَّق الشهيق وحبس كمية مضاعفة من الهواء؛ فبدأ يشم رائحة نشادر خفيفة لكن محسوسة تخرج من ثقوب التصريف بالحوض. ابتهج عندما اكتشف أنه لم يفقد حاسة الشم، وتيقن من أن تبدد الرائحة في الغرفة ليس سوى إرهاق خلايا شمه تحت ثقل النتانة واستقرارها، وليس إلى تعطلها بسبب المرض، تشمم مجددًا، فبدت رائحة الصِنان أثقل.

ـ ماذا لو أتت إحداهن فجأة!

ألقى بقليل من الديتول في الحوض، ودعكه بفرشاة التنظيف، وفتح ماء ساخنًا، استنشق رائحة المطهر بسعادة مضاعفة، وعاهد نفسه ألا يبِول في حوض الوجه ثانية. أخذ يراجع في رأسه عاداته

القبيحة التي اكتسبها خلال العزلة. تمتم مُحدِّثًا وجه الرجل ذي اللحية البيضاء في المرآة:

ـ لو استمر هذا التباعد الاجتماعي لارتدَّ الإنسان إلى أصله الحيواني.

بدا الآخر غريبًا، لكنه أخذ يهز رأسه موافقًا. حدَّق فريد في تجاعيد وجه الرجل المتهدل أمامه، دون أن يجرؤ على مد يده إلى وجهه هو، ليبحث عن تجاعيد مماثلة. ثم قال مهدئًا نفسه:

ـ لا تقلق، هذه آثار السكون، ستختفي عندما نستأنف التمارين مع الزائرات.

وتبادل الابتسام مع رجل المرآة، وانسحب من أمامه.

في الخطوات الفاصلة بين الحمَّام والغرفة، عاود ملء رئتيه إلى آخرهما وإفراغهما مرة بعد مرة، فميَّز رائحة شوربة البيض التي أعدها ظهر اليوم، واصل طريقه راضيًا. بمجرد أن عبر عتبة الغرفة دهمته نتانة اللحم المتفسخ قوية، فانكمش صدره مجددًا، وتداعى إلى السرير، مخافتًا تنفسه على أمل التعايش مع الوضع حتى الصباح. لكن بدا ذلك مستحيلاً. لقد احتمل في حياته المهنية الكثير من الروائح القبيحة، باستثناء رائحة الجثث.

في المرة الأولى والأخيرة التي دخل فيها معمل تشريح سقط مغشيًا عليه. ولو أُجبر على الجراحة أو الطب الشرعي لصرف نظره عن دراسة الطب وانتقل إلى كلية أخرى.

# 2

لا يستطيع أن يقضي الليل في الصالة. هناك فقط ثلاثة مقاعد حول صينية من نحاس مطروق يدويًا تحملها قوائم من الحديد المشغول. يأكل عليها أحيانًا، وتترك الزائرات حقائبهن عليها.

كان سعيدًا عندما وجد عمارة قديمة فيها قطاع من الاستديوهات الصغيرة في المنتصف بين جناحين من الشقق الكبيرة على اليمين واليسار. تراث الأوروبيين في العمارة الذي تنكَّرت له مدينة الغبار. لم يعد أحد يتيح هذه المساحات الصغيرة منذ بدأت المدينة الارتياب بالعُزَّاب.

فكرته في الأصل كانت شراء شقة صغيرة كاستراحة قريبة من العيادة في الليالي التي يتأخر فيها، وليالي المطر والشبورة التي لا يحب أن يعود فيها إلى الفيلا بالضاحية الباذخة شرق مدينة الغبار.

ـ تكفي غرفتان.

حدَّد طلبه من البداية، حتى لا يرهقه السمسار بمعاينة الشقق الكبيرة. ولم يخطر على باله أن يطلب استديو لاعتقاده باستحالة هذا الطلب، والرجل من جهته استبعد أن يرضى الدكتور باستديو، لكنه قاده لرؤيته كدأب السماسرة في جر زبائنهم إلى كل العروض غير المناسبة من أجل الإيحاء بضخامة المجهود قبل الوصول إلى المسكن المناسب، لكنه فوجئ بالدكتور يتشبث بالفرصة.

ولم يشعر بضيق الاستديو إلا الليلة؛ فلو كانت لديه غرفة إضافية كان بوسعه أن يبيت الليلة فيها، ويستدعي طِعمة في الصباح لتبحث عن سر الرائحة في هذه الغرفة. لكن من كان يتوقع أن يركع العالم لفيروس تافه في عصر انتصار العلم؟!

بلغ الدكتور فريد عبدالمحيط الستين منذ سبع سنوات، ونظر خلفه فأحصى واحدًا وعشرين ألفًا وتسعمئة من الأيام المتشابهة مثل سطح بحيرة ساكنة تغطيها الطحالب وروائح العطن، رغم أنه بلغ فيها أوج شهرته. لم يتزوج ولم يحنث طوال حياته المهنية بقسم أبوقراط.

ـ لا يجب ادعاء البطولة.

قال لنفسه عندما فكَّر بالأمر ووجد أن عِفَّته طوال أكثر من ثلاثين عامًا كانت طبيعية وعادية لا بطولة فيها، بل رأى نفسه ضحية أكثر منه بطلاً؛ فأي إنسان يواظب على التحديق في موضع ـ ليس أجمل المواضع في جسم المرأة ـ كان سيحدث له ذلك النسيان للكينونة، فما بال من يمتلك أنفًا ذي بصيرة جعلته مميزًا في مهنته وأتعسته تعاسة شخص يرى الغيب.

لم يعتمد يومًا في تشخيصه على صور الأشعة، ولم يكن بحاجة إلى الفحص اليدوي إلا لبث الاطمئنان في المريضة؛ فبمجرد أن تخطو إحداهن إلى غرفة الكشف ينقضُّ أنفه على بالون العطر الذي غلَّفت نفسها، يُمزِّقه مثلما يمزق غشاء مشيمة المولود، فيتمكن من تشمم روائح جسدها الداخلية، وتتبدى له المرأة المريضة كشبكة صرف معقدة بكل أخلاط الروائح: ملوحة العرق، عفونة التقيح، نتانة التكيسات، حموضة الحليب، رائحة النشادر في المثانة، روائح الأمعاء، دم الحيض في مراحل تخثره المختلفة، فضلات الجنين، يشم حتى ما يعلق بالمرأة من رائحة شريكها.

كان من الممكن أن يواصل الحياة على هذا النحو، لكن مريضة شابة أنقذت له بقية حياته. دخلت غرفة الفحص فدبَّ الانحلال في خلايا شمه، بعد أن تعذر عليها اختراق غلاف عطر من البنفسج والأوركيد مبطن بطبقة من الفلفل الأسود الوقح، وما إن جلست أمامه حتى أخذت غرفة الكشف تتسع، وصارت مزرعة فلفل لا يحيط البصر بنهايتها. تشوشت حواسه ولم يعرف ما حدث بعد ذلك. هل فحصها؟ ماذا رأى؟ ماذا قالت له؟ ماذا قال لها؟

خدَّرته ومضت. وعندما انتبه رأى نفسه جالسًا، وفي مواجهته تقف ممرضته نجية جامدة كتمثال يتعرق عطرًا حارًا؛ فكاد أن يحتضن الممرضة العجوز.

تحت تأثير الرائحة الحريفة لم يغادر العيادة حتى الصباح، وفي تلك العزلة توصل إلى الاستنارة. قرر إغلاق عيادته نهائيًا. أعاد مفتاح الشقة الفسيحة لمالكها، لم يحمل منها سوى أجندة التليفونات وسمَّاعة الكشف وجهاز قياس الضغط التقليدي ومضى ليتفرغ للحياة في فيلا الكمباوند الفاخر بالضاحية الشرقية لمدينة الغُبار. كان قد اشتراها جريًا وراء الموضة ليس أكثر. لم يحب حياد هوائها بعكس هواء قلب المدينة الملوث؛ البالون الهائل المنتفخ بخليط متمازج من عطور وعرق الحشود البشرية وفساها وعفونة المجاري ورطوبة الجدران وعوادم السيارات ودخان حرق القمامة وأبخرة القدور وروائح البصل والمخلل على عربات الفول وزيوت القلي المحروقة في المطاعم. هذا الهواء هو وحده القادر على حمايته من إلحاح روائح العمل، والأهم أنه يغطي على زحف رائحة الشيخوخة في جسده.

لطالما اعتقد فريد عبدالمحيط أن عُمرْ الإنسان ليس سوى رحلة روائح جسده، من دفء حليب الأم إلى خدر خميرة الخبز إلى شهوانية الفلفل، إلى شجن النرجس قبل أن يدب عطن التحلل الوئيد مع التقدم في السن، حتى تأتي لحظة الموت فيستجمع الجسد بقايا عطوره، وينفث آخر زفرة منها مع روحه، مفسحًا المجال لنتانة التحلل التي تأخذ بالتنامي حتى العربدة فالانكسار، إلى أن تتبدد، وتترك للأرض فرصة لتتعرف على ابنها وتضمه.

في سنوات العمل، لم تكن لديه مشكلة مع هواء الضاحية المحايد؛ فلم يكن يعود إليها إلا ساعات النوم. بعد التقاعد لم يستطع العيش هناك. الهواء الماسخ ترك روائح العمل تحاصره وتعربد في أنفه كبعوض مزعج يسمع طنينه ولا يمكنه الإمساك به، وبعد أيام قليلة بدأ إلحاح الرائحة المخيفة؛ رائحة تقدمه في السن.

عاد ليحتمي بالاستديو الصغير، ووجده أكثر من كاف لكهل وحيد. كفّت رائحة المرض والموت عن ملاحقته وبدأ يتنسم سخونة الفلفل، واشتعل في قلبه الحنين إلى كل ما ضيَّعه ذات يوم.

أجندة التليفونات في يده، يقرأ الاسم فيستعيد ابتسامة داعية، أو يشم عطرًا نضح ذات لحظة تحت ضغط أصابعه المتزمتة في القفّاز. يدير الرقم سائلاً عن صحة السيدة، عن أعمار الأولاد الذين تابع نزهاتهم في بطنها. بعد المكالمة، مكالمة أخرى، وهكذا تنشأ علاقة جديدة لا تحكمها مبادلة الألم بالمال. ولا تلبث المكالمات أن تتحول إلى لقاء؛ فيعود إلي تلمس عطر مريضته السابقة، وربما يتعرف على عطور جديدة لقريبات أو صديقات من حولها.

الخذلان الوحيد لأنفه كان عجزه عن تشمم المستقبل؛ فلم يعرف أن فيروسًا غامضًا سيجعل رائحة الموت تلتهم كل أثر للعطور.

# 3

أخذ يتمشى، في الصالة ذهابًا وإيابًا على سيراميك الأرضية المكونة من بلاطات زرقاء ورصاصية مقاس ٦٠x٦٠ سنتيمترًا، مصفوفة مثل رقعة شطرنج. يحاول تهدئة نفسه بمراقبة خطوه ليرى إلى أي مدى يمكن أن يباعد بين ساقيه ويضع القدمين على بلاطتين من الرصاصي، متخطيًا الزرقاء بينهما أو العكس. بعد عدة جولات كان لابد من العودة إلي الغرفة ومواجهة الموقف.

داهمته النتانة قبل أن يتخطى الباب؛ فأحس بارتياح وحنق في الوقت ذاته، عازمًا على التوصل إلى مصدر الرائحة قبل أن تُخدِّر خلايا شمه مجددًا.

أغلق التليفزيون، وبعد شهيق وزفير حذرين، بدأ في توجيه أنفه يسارًا ويمينًا. نفض اللحاف، وجمع من تحته كرمشات المناديل الورقية المستعملة المتناثرة مثل كتاكيت بيضاء تقافزت إلى أرضية الغرفة الباركيه.

طبَّق اللحاف الذي لم ينطبق منذ أشهر. أقلق المخدة وأزاحها إلى وسط السرير فلم يجد تحتها سوى بعض فواتير الوجبات التي يطلبها من المطاعم. دس يده في سلة المهملات الصغيرة، ربما كانت النتانة داخلها، لم يجد بها شيئًا. حملها إلى خارج الغرفة، وأفرغها في كيس بلاستيكي مدققًا في المهملات مجددًا، ثم ربط فوهة الكيس، وحمله إلى خارج باب الشقة.

بعد أن غسل يديه جيدًا عاد يحدوه أمل في اختلاف ما، لكنه وجد الرائحة متوثبة في شراسة. أضاء اللمبة الكبيرة المدلاة من السقف العالي دعمًا لأضواء الأباليك المفتوحة ليلاً ونهارًا. أخذ يستطلع الزوايا فلم يعثر على شيء. فتح كشَّاف الموبايل وسلَّطه على الفواصل المظلمة بين الدولاب والحائط، وبين رأس السرير والجدار؛ بين السرير وزوج الكوميدينو من الجهتين، وخلف التسريحة. لم يجد شيئًا. استلقى على السرير وشابك أصابع يديه خلف رأسه. بعد لحظات من السكون التام داهمته هبَّة من النتانة هي الأقوى حتى الآن.

انتفض حانقًا، وفتح أول ضلفة من الدولاب، أفرغ محتوياتها تباعًا بحذر، مُنقِّبًا في جيوب الجواكت قبل أن يلقي بها واحدًا بعد الآخر على السرير، ثم تفقد الرفوف على نور الموبايل. لم يجد شيئًا. انتقل إلى ضلفتي الوسط، الجزء الأعرض الذي خصَّصه لملابسه المنزلية مع قمصان المرأة الوحيدة التي أحبته، وكان يتمنى أن يحبها مثلما تحبه، لكنه انتهى إلى الاقتناع بأنه يفتقد ملكة الحب، وأخذ يحدثها عن التناغم الذي لا يجرؤ على تسميته حبًا، و كان عليه ـ من باب اللياقة ـ إيهامها بأنه لا يعرف غيرها وأن حضورها في حياته صار راسخًا. على كل رف من رفوف ملابسه دس قميصًا لها، أطلعها على المشهد وأنشدها:

ـ فإن تك قد ساءتك مني خليقة، فسلي ثيابي من ثيابك تنسل.

أجابته:

ـ امرؤ القيس كان هجَّاصًا مثلك.

مع ذلك، جعلتها تلك اللمسة تبتسم في حبور وتعانقه. ومن أجل الحفاظ على هذه المرأة الجميلة بالذات احتفظ من أصدقائه الرجال بصديق واحد. لم يكن يراه إلا نادرًا، لكن شبحه كان ضروريًا. إذا هاتفته للقدوم وهو مشغول مع زائرة أخرى يتعلل بالمسكين:

ـ للأسف، بهاء السخيف عندي.

الحب ليس السبب الوحيد الذي يجعل امرأة ترفض أن تكون واحدة من عشيقات متعددات. الأغلبية مع التوحيد لاعتبارات مختلفة؛ الكرامة، الأنانية، الخجل، الخوف من الفضيحة، وبعضهن من باب التظاهر ليس إلا. ووجد من يتسامحن مع التعدد على ألا يتقابلن، ولم يعدم من يرغبن في الاجتماع الثلاثي، أو من يقبلنه من باب تجربة شيء مثير.

هو الوحيد بين سكان العمارة الذي يستقبل زائراته بكل حرية، بفضل مهنته. يفتح البواب وزوجته باب المصعد للزائرات مع دعوات بالشفاء، ولا أحد من الجيران يزعجه كما يفعلون ببعضهم البعض.

أنهى تفتيش ثلثي الدولاب ولم يعثر على شيء. ظلت العفونة قوية، وصار متأكدًا من أن المفاجأة تقبع في الضلفة المتبقية المخصصة لمتعلقات الزائرات المتسامحات اللائي لا تجد إحداهن حرجًا في البحث عن متعلقاتها بين أشياء الأخريات. أحس قشعريرة في جسمه:

ـ ماذا لو كانت الجُثة لإحداهن؟

بدا له السؤال منطقيًا تمامًا في تلك اللحظة؛ فربما كوَّر ذات مرة قميصًا وألقى به داخل الدولاب وبالمصادفة كانت صاحبته بداخله. تجسدت له الصورة حقيقة فصفعته قشعريرة خوف، وسرعان ما أحس بخدر نعاس، ثم غامت الغرفة وأحس بخبط أجنحة. تطلع إلى فوق فرأى حمامة بيضاء مذعورة عبرت من فوق رأسه ومرقت إلى الصالة. وأدرك في تلك اللحظة الخاطفة أن الحمامة روحه وعليه أن يتبعها لتعود إلى جسده وإلا مات وتعفَّن. سقط على الأرض قبل عتبة الباب، وببقية من عزيمة أخذ يزحف حتى صار كله في الصالة بينما تكبر الحمامة البيضاء فوق رأسه وترق حتى بدت ملاءة شفافة سقطت فوقه وغطته من رأسه حتى قدميه.

أفاق من غيبوبته بذاكرة بيضاء، لا يعي شيئًا أكثر من كونه لم يزل حيًا. لم يتذكر حتى اسمه. شيئًا فشيئًا أخذ يسترد وعيه، وأدرك تبلل سرواله؛ فتأكد أنه عبر إلى الجهة الأخرى ثم عاد من

الموت.

بمكابدات بطولية تمكَّن من النهوض، وبدأ يتصرف كطبيب. فتح شبَّاك الصالة فتدفق الهواء. استنشق بعمق وتوجه إلى خزانة المطبخ وتناول ملعقة من العسل، ثم خطا نحو مقعد وتداعى فوقه. أدرك أنه بحاجة إلى مساعدة. فكَّر في مهاتفة بهاء، أو سالم البواب، لكنه تراجع كارهًا أن يقلق صديقه أو يراه البواب على هذه الحال. بعد دقائق بدأت موجات ضعيفة من الحياة تهز جسمه الواهن، دخل إلى الغرفة حابسًا تنفسه، فتح شُباكها على اتساعه، وأخرج رأسه مستنشقًا هواء الشارع بشراهة. استبدل سرواله المبلول واستلقى على السرير منهكًا. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، وبعد لحظات انطبقت جفونه من تلقائها.

# 4

أيقظه الضوء وإحساس بالبرد بعد الفجر مع شوكات ذبابات وقحة تتقافز على وجهه. بدأ يستعيد وقائع الليل. تذكَّر بشكل واضح الحمامة عندما طارت وعندما صارت رداءً، وتذكَّر أنه كان يعتقد في تلك اللحظات أن الرداء مصنوع من قماش السلام، وبدا لحظتها أن ذلك السلام نوع عادي من النسيج معروف للجميع كالقطن والكتان والصوف.

فكَّر أن أول ما يجب أن يفعله هو إغاثة نفسه بإفطار غني بالطاقة.

ـ عسل وبيض قليل النضج في الزبد.

قرَّر، وقام إلى ركن المطبخ.

بعد الإفطار، شيَّش شُبَّاك الغرفة ليمنع الذباب والنور الصاخب، ثم استلقى، وخلال لحظة غاب في النوم مجددًا.

لم يستيقظ إلا في العشية. كان بحالة أفضل، وتذكَّر بحثه الذي لم يكتمل عن مصدر الرائحة التي عاد يشمها خفيفة، رغم التهوية الجيدة.

قام إلى الدولاب، وأحس بتدفق الأدرنالين في دمه بينما يفتح باب الزائرات بحذر. دهمته الرائحة مثل صرخة وسط السكون.

ـ هنا السر كما توقعت!

أخذ ينتزع الشماعات من فوق الحامل بأنملي السبابة والإبهام كأنه ينتزع أشواكًا ويلقي بها على الأرض، ثم أزاح كومة القمصان والسراويل وبدلات الرقص وحمَّالات الصدر عن الطبقة السُفلى من الدولاب. كاد يُغمى عليه مجددًا من موجة النتانة التي وصلت إلى المستوى الأعلى، وذكَّرته برائحة قنابل الغاز التي لوثت هواء المدينة مرتين في السنوات العشر الماضية.

بين الملابس التي جرفها من الدولاب إلى أرضية الغرفة، سقطت جثة فأر. رآه فأرًا مكتملاً لبرهة، وتبدد وبره وانتثر كغبار أسود فور اصطدامه بالأرض. تبقى هيكل عظمي في حجم أرنب. دهمه القرف، واشتغلت غدده اللعابية بأعلى طاقتها، بينما يكتم أنفه بإصبعين، ثم تحرك بحذر نحو الدولاب، أضاء أرضيته فرأى جماجم صغيرة في حجم بذرة مشمش متناثرة فوق مهاد من الغبار الأسود.

ـ لابد أن الهيكل الكبير لأم اقتاتت على أولادها ثم لحقت بهم.

قال لنفسه. وقدَّر أن تلك الفأرة كانت تساكنه منذ سنوات، ولأنه لم يعد يغادر الغرفة لم تجرؤ على التجول للبحث عن طعام حتى ماتت في محبسها. تذكَّر أنه كان يسمع أحيانًا خرخشات، وكان يعتبرها صادرة عن التليفزيون.

وقف للحظات غير قادر على تحديد نقطة البداية في التنظيف، ثم خرج إلى الصالة. لم تكن الساعة قد تعدت التاسعة، فكَّر لوهلة في استدعاء طِعمة، لكنه تراجع عن الفكرة التي اعتبرها مجنونة.

ارتدي كمامة وقفَّازًا طبيًا وعاد فحمل كومة الملابس، وألقي بها على أرضية الحمام، ثم عاد مرة أخرى بكيس بلاستيكي، وفوطة عائمة في جردل ماء بالمطهرات. وضع بقايا الفئران في الكيس، وأخذ بتنظيف جدران وأرفف ذلك القسم من الدولاب، وأرضية الغرفة، ثم أخرج كيس القمامة مربوطًا بإحكام. كان كيس الأمس في مكانه، وضع بداخله الكيس الجديد، ونزع عن يديه القفازين وألقى بهما فوقه، ثم ربط الكيس الخارجي، وارتدَّ إلي الداخل.

ارتدى قفازين جديدين وجدد الماء، وسكب فيه كمية مضاعفة من المطهرات وعاود التنظيف. كرر ذلك ثلاث مرات. وعندما اطمأن إلى أن الغرفة أصبحت على ما يرام، خرج ليضع ملابس الزائرات في الغسالة.

نظر إلى الكومة المتداخلة، مثل ألعاب لونية في لوحة تجريدية. أخذ يتشمم بحذر، ولم يجد سوى أثر خفيف لنتانة تغالبها رائحة عرق وتبغ ذكَّرته بالخدر الذي أحسه عندما دفع بلسانه في فم أول زائرة مدَّخنة. خذَّره الطعم القلوي في فمها، ولم يتحمل رائحة التبغ من ذلك القرب، رغم أنه يُميِّزها ويسوغها ضمن حساء الروائح في هواء المدينة. بعد ذلك بدأ التدخين باعتدال، حتى يتطبع مع ذلك الطعم، ويتمكن من الاستمتاع بفم مدبوغ بالدخان.

في سنوات العمل كانت النساء تترك أشياءً في العيادة، في الغالب كن ينسين السراويل، وفي النادر جدًا مشدات الصدور، لأن النهود تعتاد ذلك القيد بعد سن معينة وتشعر بالقلق من الحرية عندما يغيب. تتحمل المرأة لحظة الفحص، وتتحرك يداها تلقائيًا لإعادة المشد إلى مكانه فور استدارة الطبيب.

إذا لم تسارع التومرجية إلى التقاط السروال المتروك، يتوتر ويزعق فيها كأنها تركت جثة في طريقه.

بعد أن توصل إلى الاستنارة، لم يعد للروائح السرية تزمت الفضيلة وزناخة الوظيفة. بدأ يتمنى أن تترك إحداهن قميصًا لمرة قادمة، أن تودِع لديه بدلة رقص تعرقت فيها، أو تنسى سروالاً عابقًا بروائح قلبها. بات يسأل الزائرة شيئًا من أثرها، ثم تعَّلم أن يغافل من ترفض ويخفي ما يقدر عليه.

أحيانًا ما تفطن إحداهن إلى الشيء الناقص أثناء ارتدائها ملابسها؛ فتظل تبرم حول نفسها بحثًا عنه، إلى أن تيأس وتتصرف، خصوصًا إذا كانت القطعة المفقودة غير ذات تأثير على مظهرها الذي خرجت به من بيتها.

بحذر انحنى على الكومة دون أن تتوقف غدده اللعابية عن الهذيان. أخذ يفرز كل مجموعة لونية في كومة مستقلة لغسلها معًا. استقام ليريح ظهره، وأخذ يتحسس ذقنه النابتة أمام المرآة.

انقضى أكثر من عام لم يلمس فيه امرأة، لم يسعد بصيحة الدهشة من فتاة فتنها التناقض الرهيب بين قوته الطاغية وشعره الأبيض وعضلات بطنه التي بدأت تترهل. يُفضِّل الصغيرات السابحات في رحم السذاجة، لأنهن لا يعانين من لؤم نساء منتصف العمر اللائي يغافلنه وينبشن خزانة أدويته. يُفكِّرن بشكل تلقائي في المنشطات. ولا مشكلة لديه في الاعتراف بالحقيقة، لكن الجنس كالعلاج؛ نصف الشفاء يتوقف على الاقتناع بالطبيب.

الآن يشتاق إلى ظل امرأة، أية امرأة. لم يكن يتوقع أن يأتي يوم يصعب فيه على زائراته اختلاق أعذار للخروج أمام أزواجهن وآبائهن وأبنائهن؛ فلا عمل يدَّعين الذهاب إليه وقت العزل، لا مطاعم، لا أعياد ميلاد، حتى واجب العزاء الذي كان ضروريًا في حياة ما قبل الكورونا لم يعد ملزمًا؛ فسقط مفعوله كحجة لخروج إحداهن من بيتها.

# 5

شرع في فرز نهائي لوجبة الغسيل الأولى. أخذ في الحقيقة يفرز لذاكرته أكثر مما يفرز للغسَّالة. يفرد القطعة، يتشممها، فيتذكر صاحبتها بوضوح. يلف شجنه في القميص ويلقي به في فوهة الغسَّالة.

فجأة ميَّز رائحة البحر في القميص الذي غادرته صاحبته ولم تعد إليه أبدًا. ألصقه بوجهه وأخذ ينهنه.

الشابة التي أعاد معها تعريف السعادة. كان يتوتر ويغضب عندما يخذله جسده؛ فتأخذ في لمسه، بينما تقول ضاحكة:

ـ هذه مهمتي أنا!

بفضل مرحها يتبدد توتره، ويرد باسمًا:

ـ يبدو ميتًا.

تقول صاحكة:

ـ من أحيت ميتًا صار لها عبدًا.

كانت تأتي إليه بعد رحلة طويلة بالقطار لتقضي معه ساعتين لا دقيقة أكثر أو أقل، ثم تغادر مهرولة لكي تلحق بالرحلة التي تعيدها إلى مدينتها قبل حلول الظلام. في ذلك اليوم انتظر نقرات أناملها الإيقاعية على الباب في التوقيت الثابت، وعندما لم تأت هاتَفها. رد عليه صوت رجل حانق:

ـ من أنت؟

اعتذر بادعاء الخطأ في الرقم وأنهى الاتصال مرتبكًا.

في اليوم التالي قرأ خبرًا صغيرًا في الصحيفة. «حاولت زوجة شابة القفز في القطار بعد أن تحرك فماتت تحت العجلات» لم يعد لديه شك في أنها القتيلة وماتت عندما كانت في طريقها إليه.

بدأ زوجها يلاحقه باتصالاته:

ـ من أنت؟

ـ أنا طبيب.

ـ شي الله يا طبيب. ادعيت الخطأ في الرقم، وبينكما مئات الاتصالات؟!

ـ الزم حدودك.

ـ كانت ممتعة يا كاااالب؟

يواصل الرجل الغاضب إطلاق زخَّات الشتائم على الرجل الحزين، مع دفعات من الأسئلة الفاحشة حول التفاصيل الحميمة للميتة، حتى يغلق أحدهما المكالمة. ولم تنته تلك المناوشات إلا بعد أن ألغى فريد خط تليفونه واشترى خطًا جديدًا.

دون أن يقوى على رفع القميص إلى وجهه مجددًا، غمرته موجة طاغية من رائحتها، وأطلق صرخة استغاثة، طويلة، يائسة، تردد صداها بين جدران الاستديو الصغير في موجات أخذت تتخافت حتى ابتلعها السكون.

# ٢١ يوليو ٢٠٢٠

الاعتداء الغاشم على حمادة رزق لم يهز شعرة في رأسه، ولن يجعله يتراجع عن حربه ضد الفيروس اللئيم، متسلحًا بخبرة عشر سنوات في وظيفته الحسَّاسة، مكَّنته من كشف أكثر الأشياء خفاء.

يعمل حمادة حارسًا في مول تجاري فخم. ويرجع الفضل في حصوله على وظيفته المريحة والقيِّمة إلى سميح آريانوس، الصديق الوحيد الذي خرج به من فترة التجنيد. كلَّمه ذات ليلة في التليفون بعد شهرين من تسريحهما.

ـ حمادة! هناك إعلان لوظيفة حارس في مول بضاحية راقية، لماذا لا تأتي معي ونُقدِّم أوراقنا؟

حدد له سميح طريقه. خط الميكروباص الذي سيستقله، والمكان الذي سينزل فيه ليستقل المترو، والمحطة التي سيغادر فيها باطن الأرض، ليستقل الأتوبيس الذي سينزل منه أمام المول.

كان الشابان مفتولين بأثر تدريبات الجندية، عضلات بارزة، وجِلد مدبوغ من أثر الشمس. كلاهما طويل القامة، وكلاهما يسكن حيًا عشوائيًا من الأحياء التي كانت حقولاً حول مدينة الغبار. ولسبب ما تم قبول حمادة واستبعاد سميح.

أحسَّ حمادة بالأسف، لأنه كان يحب صديقه جدًا، وذهب إلى الاختبار بأمل أن تجمعهما هذه الوظيفة مجددًا، ولا يعودان يفترقا أبدًا، لكن هكذا تفعل الأقدار.

تسلم بدلة أنيقة رصاصية وكاب من اللون ذاته، السترة تزينها كتَّافات ذهبية تتدلى منها شُرَّابات من خيوط في لون الذهب، مع ضفيرة من خيوط ذهبية مشدودة من الجهة اليسرى في خصره إلى كتفه اليمنى. لم يكن ينقصه إلا السيف ليُصبح نابليون حقيقيًا، نابليون أسمر.

سأل رئيسه عن التدريبات والسلاح الذي سيستخدمه والمهام القتالية الموكلة إليه؛ فأجابه:

ـ لا شيء، ستقف أمام الباب متيقظًا، وهذا كافٍ جدًا.

أحس حمادة بالإحباط، لأنه يعرف كيف يُطلق النار، كان يحصل على أعلى الدرجات في تدريبات الرماية ويستطيع أن يفك البندقية ويعيد تركيبها بمهارة فائقة. ورغم كل هذه الخبرات عليه أن يكون تمثالاً لنابليون؛ مجرد فزَّاعة مثل فزَّاعة الطيور التي عرفها في طفولته، عندما كان بيتهم وسط الحقول. لم يفهم يومًا حكمة وجود خيال المآتة لكي يفهمها اليوم، لكن عقول الناس أصغر من عقول العصافير!

كان يرى خيال المآتة في الحقول واقفًا بلا عمل، لأن العصافير تكتشف سريعًا أنه ليس إنسانًا؛ فتهزأ به، وتجعل من كتفيه استراحة لها. يميل تحت ثقلها إلى هذه الجهة أو تلك؛ فتسلح فوقه قبل أن تطير ضاحكة ممن أوقفه في هذا المكان، فالعصافير لا تخشى إلا ما يتحرك؛ إنسانًا كان أو غير إنسان.

اعتاد أن يخرج مع أصحابه ليصطادوا العصافير بالنبال ويتسلقوا أشجار التوت والنخيل ويسرقوا الطماطم والخيار والقثَّاء من الحقول ويصنعوا سدودًا في الترع عندما ينخفض ماؤها، ينزحون القطعة التي سدوا عليها من الجهتين ويمسكون بالأسماك البلطي والقرموط.

كل ذلك صار من الماضي. تآكلت الأرض تحت زحف البناء، ثم اختفت. لم يعد هناك شيء من كل ما رآه في طفولته باستثناء الترعة الكبيرة التي صارت مصرفًا للبيوت، ولم يعد فيها سوى القرموط الذي ينمو ويتناسل بكثرة على الفضلات البشرية، وأصبح هناك صيادون محترفون يصطادون الكثير منه ويبيعونه في أحياء الغائط الأخرى، وكان من البديهي أن يفهم حمادة رزق أن القراميط التي تباع في السوق القريبة من بيته تأتي كذلك من مصارف غائط الجهات الأخرى؛ فحرَّم على أمه، ومن بعد على زوجته، شراء القرموط.

ظل حمادة يذهب إلى عمله مستخدمًا وسائل المواصلات الثلاث كما حددها له سميح في المرة الأولى. في بداية تسلل الوباء إلى المدينة لم يكن ارتداء الكمامة قد صار إجباريًا بعد، لكنه كان حريصًا على عدم العطس في وجه أحدهم أو ترك الفرصة لأحدهم أن يعطس في وجهه، لقد تعلم خلال رحلتي الذهاب والإياب على تفادي مخاطر وألاعيب أكبر من هذه؛ فهو على سبيل المثال لم يتعرض للنشل مرة واحدة، ولم يخرج من جيبه مليمًا لمتسولين احترفوا التلاعب بالمشاعر. اكتشف ألاعيب الباكين على لبن مسكوب غير حقيقي، أو بيض فاسد مهشم، والذين يدَّعون أنهم تعرضوا للسرقة، أو يمشون بأكياس دم أو بول في أيديهم تخرج أنابيبها من تحت ملابسهم بدعوى أنهم مرضى طردهم المستشفى.

ودائمًا ما كان جاهزًا لمواجهة اللعبة اللئيمة في تسعير الركوب التي تتسبب في مشاجرات لا تنتهي بين الركاب والسائقين؛ فالتسعير يجافي الأرقام الصحيحة دائمًا، ولابد أن يتطلب كسورًا ليست موجودة دائمًا، ويكون على الراكب أن يختار بين التنازل عن الكسور، أو الاستعداد بالفكة في كل مواصلة يستقلها. لا أحد يعرف من يقف وراء هذه الفتنة بين الركاب والسائقين؛ فالعدو صغيرًا كان أو كبيرًا لا يعلن عن نفسه بسهولة. لهذا يتسلح حمادة بالفكة على الدوام، بفضل المنح التي يتلقاها من بعض رواد المول.

والفيروس مجرد عدو خفي جديد، وإن كان أكثر الأعداء خفاءً لضآلته. وفي سبيل الاستعداد للحرب عليه تعلَّم حمادة قواعد النظافة على أصولها. يغسل يديه بالماء والصابون لمدة ثلاثين ثانية يعدها في سره ويزيد عليها عشرًا من عنده. ويستخدم المطهرات. حمل إلى البيت يومًا بعد آخر

زجاجات الكحول والخل والكلور التي يستخدمونها في تطهير المول والكثير من الكمامات الجديدة وكذلك المستعملة التي يطوحها رواد المحال الضجرون بمجرد خروجهم إلى الهواء.

وأحس أنه يقترب من اليوم الذي سيستطيع فيه رؤية الفيروس بنفسه. ويعتقد أن ذلك ليس مستحيلاً؛ فقد تسلم عمله لا يدري شيئًا عن الحراسة، لكنه عرف بسرعة شديدة كل الألاعيب التي يمكن أن يلعبها اللصوص. تنقَّل من أمام مطاعم ومقاه ومحال مثلجات إلى الوقوف أمام محلات الملابس والساعات والعطور ذات الماركات وداخل السوبر ماركت الضخم أسفل المول.

عرف حدود التعامل مع المحترفين المتسللين من الأحياء العشوائية، والهواة من رجال وسيدات المجتمع الراقي الممسوسين بولع السرقة، وهذا التفريق ضروري جدًا. الخطر يأتي من التساهل مع المتسللين، الذي يمكن أن ينتهي باجتياح سكان الأحياء الفقيرة للمول والحي الراقي كله، مثل أسراب الجراد التي تجتاح حقلاً فلا تغادر إلا بعد أن تلتهم زرعه التهامًا، أما أبناء المجتمع الراقي فإنهم يسرقون لمجرد تذوق لذة السرقة، يخفون شيئًا بسيطًا، كان بوسعهم أن يحصلوا عليه كهدية مجانية فوق مشترواتهم الثمينة.

عندما يحاول حمادة شرح مسئولياته يجد الأمر صعبًا؛ فهو ليس مأمورًا بحراسة بضائع المحال فحسب، بل حراسة الزبائن ومشترواتهم، ومراقبة سلوك العاملين كذلك؛ فالانحرافات أنواع والسرقات مذاهب. هناك من يُفضِّل ما خفَّ وزنه وعلا سعره، وهذا هو النوع الماهر قوي القلب لأن الغالي محروس جيدًا، وهناك الجبان الذي يُفضِّل سرقة الكثير من الرخيص المُهمَل، مثل عبوات المياه والمرطبات التي تُشوَّن دون أية حماية خلف المطاعم والسوبر ماركت.

أمسك حمادة ذات مرة بسارق مجوهرات عالي التدريب، كما أوقع بطبَّاخ واثنين من مساعديه يسرقون أجنحة الدجاج، يسرِّبونها في الكراتين الفارغة التي يُلقون بها من الباب الخلفي لمطعم كبير، واتضح أنهم كانوا يفعلون ذلك طوال سنوات، امتلكوا خلالها مطعمًا متخصصًا في الأجنحة المسروقة مع البطاطس ويلقى رواجًا أكبر من رواج المطعم الذي يعملون فيه، أما أغرب بطولاته فكانت الإمساك بلصة دخلت في جلباب ريفي واسع وخرجت في أناقة سيدة راقية. ارتدت زوجًا من حمالات الصدر وأربعة سراويل من الدانتيلا تحت فستان من الحرير الطبيعي، وأمسكت بحقيبة من ماركة عالمية ومضت متوازنة بمهارة فوق الكعب العالي لحذاء من الماركة ذاتها. تجاوزت مسروقاتها ثمن البيت الذي يسكن فيه حمادة.

كانت طويلة وتقاطيعها حلوة؛ هانم حقيقية؛ فلم يشك بها أحد، حتى حمادة انحنى لها باحترام، لكنه كشفها بعد أن ابتعدت وبدأت تسير على راحتها، تجدِّف بيديها لمغالبة الهواء كما يفعل الفلاحون رجالاً ونساء، لأنهم لا يعرفون الضيق الذي يُجبر أبناء المدن المزدحمة على لصق أذرعهم بجنوبهم.

لاحقها، فشتمته بلهجتها الريفية. وقف مشدوهًا من التناقض بين خشونة لفظها وجمال شكلها. كلمة منه، كلمة منها، انهارت في النهاية، وتبين أنها زوجة بواب لعمارة في حي من التي كانت

راقية في قلب المدينة. وكان من الممكن أن تنتهي إلى السجن لكن سبعة من سكان عمارتها جاءوا وتوسطوا لها.

مكالمة واحدة من تليفونها «الحقني يا سعادة البيه» وجاء البهوات السبعة، تقاطروا ملهوفين «طِعمة، طعمة، أين طِعمة؟ ماذا حدث يا طِعمة» ولم ينصرفوا إلا وهي معهم.

# 2

صار بوسع حمادة أن يعرف الشيء المُهَدَد بالسرقة من خلال لمعة عين زبون. ومن موقعه أمام الباب يعرف المرأة التي خرجت بقطعة ملابس داخلية مختلفة عما دخلت بها. وبسبب مهارته أصبح أصحاب المحال يكلفونه بترك مكانه أمام الباب بين الحين والحين والتجول داخل المتجر لبث الهيبة، حتى لا تقع السرقة أساسًا ويبقى المتجر بعيدًا عن لغط لا لزوم له؛ فالردع بوجود السلاح أفضل من استخدامه.

استعاض حمادة بالنظرة عن البندقية المحظور عليه استخدامها. بنظرة صقر يداهم الأشقياء الذين يخفون في ملابسهم آلات حادة لفك أجهزة الإنذار؛ فتسقط المقصات والمطاوي بين أقدامهم قبل أن يهموا بدخول كبائن القياس بأحمالهم من الملابس.

للأسف، أُغلق المول قبل أن يكتسب الخبرة الكافية لكشف الفيروس. منحوه أجازة مفتوحة، فأصبح حبيس شقته الصغيرة في الطابق السابع من بيت مبني دون أعمدة أو أساس جيد، مثله مثل سائر بيوت الحي العشوائي.

اختار السكن في هذا البيت الذي يحتل الناصية ليتناسب مع وضعه كحارس في مول فاخر ويرى أشكالاً وألوانًا من نساء ورجال الطبقات الراقية، كما اختار الطابق الأخير لكي يضع أكبر مساحة ممكنة من المباني تحت ناظريه عندما يتطلع من النافذة. لكن هذا المكان المرتفع بالذات صار مصدر خوف أمه عليه، خاصة بعد أن تزايد جشع المالك، وجعل غرف الشقة الأرضية كلها دكاكين، فتح لها أبوابًا في الجدار على الشارعين حتى أصبح البيت طائرًا فوق الأرض أكثر منه قائمًا عليها.

يعيش أبواه بعد مدخلين اثنين، في الطابق الأرضي من بيت لم يستسلم مالكه للجشع فلم يرفع أكثر من الطوابق الخمس، ولم تتوقف أمه عن الإلحاح عليه ليترك الشقة التي استأجرها بعناده، ويرد عليها بأن هذا البيت الذي تخشاه مر عليه الزلزال ولم يقع. وعندما مات المالك قبل عدة أشهر من بداية الوباء، قالت أم حمادة بتلقائية:

ـ يا بخته، ربنا أنقذه من البيت.

لم تستطع هواجس الأم أن تهز حمادة ولا صفاء، زوجته التي تحفظ جميع تمثيليات التليفزيون لأنها تشاهد كل مرَّات إعادتها. وبقلب الأم لم يعد أمامها إلا أن تتمنى أن ينهار البيت عندما يكون حمادة في الشُغل.

ـ طيب، وأنا يا ماما؟

تسألها صفاء؛ فتجيبها:

ـ سنجدك متربعة تحت الأنقاض، تتابعين المسلسل.

وكما يمحو الخوف الجديد خوفًا قديمًا، لم يعد خطر انهيار البيت هاجس الأم، بل الوباء الذي لا تعرف له رأسًا من ذيل. وأخذ حمادة يُطمئنها، ويؤكد لها معرفته التامة بكل ألاعيب الفيروس البشع الذي يبدو مثل هراوة بلطجي مدججة بالمسامير. عرض على أبويه الانتقال للإقامة معه، حيث إن طابقه أعلى من كل البيوت المجاورة، ويستطيع أن يحتفظ بشبابيكه مفتوحة دون خوف من العدوى، بينما لا يكف الصبية عن اللعب تحت شباكهما، لكن الأم رفضت رفضًا قاطعًا، وأمَّن أبوه على كلامها بإشارة من يده؛ فأغلق لهما شبابيك الشقة لأن أباه طريح الفراش منذ عام لن يحتمل أية إصابة ولو خفيفة، ومن باب الاحتياط غلَّف الشيش من الخارج بالبلاستيك حتى لا ينفذ منه الفيروس السابح في الهواء.

لا يتقدم الوباء شِبرًا حتى يقطع حمادة ذراعًا في الاتجاه المعاكس. بدأ يرتدي الكمامة عندما يقطع الخطوات المعدودة بين سكنه وسكن والديه؛ فيشير الصغار إلى كمامته ويضحكون، بينما يرفع الكبار له الإبهام تعبيرًا عن استحسان مسلكه الواعي، والبعض يسألونه من أين يأتي بها؛ فيمنحهم الهدايا من المستعملة التي كان يلتقطها من فضاءات المول محتفظًا لنفسه بالكمائم الجديدة في علبها.

وصار يشتري حاجات الشقتين من الطعام، يُطهِّرها في شقة والديه، ويترك لهما حصتهما، ويحمل حصته ويهرول بها في الشارع مسافة ستة عشر مترًا بين البيتين، ويصعد إلى شقته فيجد نفسه مدفوعًا لإعادة تطهيرها. يرش الأكياس من الخارج بالمطهرات، ويغسل يديه. يُفرغ المشتراوات في أماكنها، ثم يقوم بتطهير الشقة، ويأخذ دُشًا، ويجلس لمشاركة صفاء مشاهدة التليفزيون.

اكتشف أنه لا يستطيع متابعة قصة مهما حرص على ذلك، لم يتوصل أبدًا إلى معرفة من زوج من، ومن يخون من،؛ فتزايد إعجابه بعبقرية صفاء التي تعرف خبايا كل القصص، بينما بدأت تضيق بثرثرته حول الإعلانات التي تكرهها وتنتظر انتهائها بفراغ صبر. كانت في السابق تستغل وقت الإعلان لدخول الحمَّام أو تفقد شيء فوق الموقد، لكن حمادة صار يستبقيها، ويشغلها عن ذلك.

ـ انظري! انظري! أنا حرست هذا المتجر عامين.

ـ انظري، في هذه الزاوية بالضبط كنت أقف ستة عشر ساعة في اليوم.

ـ لحظة، انتبهي، انتبهي لحظة. عندما صوروا هذا الإعلان كنت واقفًا في ذلك الجانب، لو تحركت الكاميرا بمقدار سِنَّة واحدة كنت ظهرت في الصورة!

في طريقه إلى المول لم يكن حمادة يرى من المجمعات السكنية الفخمة سوى مداخلها وممراتها التي تبدو من البوابات محفوفة بالأشجار والزهور، وقد أطلعته المسلسلات على الفلل من الداخل، وما يجري في خفائها. لا ينتهي الإعلان ويعود مشهد من المسلسل، حتى يبدأ في التعليق على المفروشات الجميلة، أو استنكار الأفعال القبيحة التي يفعلها الباشاوات. يستغرب أن يُغضَّ الطرف عن سرقاتهم الكبيرة التي يخططون لها في هذه البيوت الفاخرة، مثلما يُغضَّ عن ملعقة أو شوكة يسرقونها من مطعم.

لا يكف عن التساؤل:

ـ بجد؟ هذا يمكن أن يحدث، بجد؟

وصفاء التي تريد التركيز، لا تكف عن زجره.

ـ سس، هس، اسكت دقيقة، لأجل النبي.

مسلسل بعد آخر، اعتبر أن ما يراه كلام فارغ ولا يمكن أن يحدث في الحقيقة:

ـ مجرد خيالات لجذب انتباه صفاء وأمثالها.

وكف عن التركيز في الشاشة إلا عندما تظهر لقطة يستعيد بها الحي الراقي، كأنه لم ينقطع عنه، ولم تشغله هذه المشاهدة السطحية عن أبويه، فكان يلبي حاجاتيهما، ويطهِّر لهما الشقة مرة في الصباح ومرة أخرى قبل الثامنة مساءً، الموعد الذي وضعته السلطات لحظر التجول.

لا تدخل السلطات هذا الحي إلا عندما تقع جريمة قتل، وعادة ما تتأخر يومًا أو بعض يوم ريثما تنفذ إرادة الله فيمن يموت ومن يعيش. ولذلك فإن التزام حمادة بموعد الحظر ليس خوفًا من الغرامة، بل التزام من يُقدِّر المعرفة، وقد تعلم من احتكاكه مع الناس الأكابر الكثير من الخبرات، تعلم حتى بعض الكلمات الإنجليزية. وهكذا لم يخالجه شك في أن الثامنة هي الموعد الذي يبدأ فيه الفيروس نشاطه وأن الحكومة تريد أن تصيب ذلك العدو اللعين بخيبة الأمل عندما ينتشر في هواء المدينة ولا يجد فمًا أو منخارًا يدخل منه. جعله هذا الاستنتاج يقوم بتبطين شيش شبابيك شقته بالبلاستيك كما فعل مع شقة والديه من قبل، وبدأ يغلق جميع النوافذ قبل الثامنة مساء كل ليلة مهما كانت شدة الحر.

وآه من الحر الذي كان حمادة ينتظره بفرح في المول، ليس لمجرد أن النساء تتفتح فيه مثل الورود، فهو فصل شفاف يساعد الحارس. لا تتسع ملابس الصيف لإخفاء شيء تحتها، بعكس ملابس الشتاء الثقيلة التي يمكن أن تخفي تحتها جملاً وفي جيوبها المتعددة يمكن أن يرعى قطيع من الماعز. لكن هذا الصيف التعيس لم يحمل لحمادة بهجة أو راحة أعصاب، بل على العكس حمل التأكيد على شراسة العدو المُقنَّع، وأبقاه محبوسًا.

وعندما بدأ المرضى يتساقطون حوله، أحس حمادة بأن لحظته قد حانت لحماية الحي الذي تربى فيه. وبدأ بالأقربين؛ فشرع في تطهير مدخل بناية والديه حتى باب شقتهما، بينما كان عليه تطهير السلم في كل طوابق البيت الذي يسكن قمته، من بسطة شقته نزولاً على السُلم الضيق إلى المدخل، منتبهًا لمخاطر الانزلاق على درجات حجرية متآكلة. دخل في مشادات مع الجيران حول صفائح القمامة التي يضعونها على بسطات السلم أمام شققهم، وطارد القطط التي تسكنها إلى فوق السطح. لا يستريح إلا بعد أن تهرب إلى أسطح بعيدة.

# 3

أمام شراسة الوباء بدأ يرش الشارع في المسافة بين شقته وشقة والديه بالمطهرات، لكن الوباء أخذ يستشرس يومًا بعد يوم.

مات ساكن الطابق الثالث من بيت حمادة. ورغم أن أسرة الميت أنكرت وفاته بالكورونا إلا أن حمادة أدرك كذبها، ومع ذلك لم يفته واجب العزاء ومساعدة جيرانه في مصابهم الأليم. أحكم كمامته فوق وجهه وارتدى القفازات ووقف لتطهير الشقة تحت أقدام المعزين.

بعد هذه الوفاة، مدَّ حمادة نطاق الحرب مع الفيروس ليشمل شقق الجيران. وهكذا أنقذ الكثير من الأرواح التي لا تعرف الحذر. لم تحدث أية وفاة جديدة في البيت الذي يقيم فيه ولا في بيت والديه، لكنه لا يحب أن يتحدث عن بطولة، بل عن واجب لا يستحق الشكر أو التنويه. وللحق؛ فهو لا يزعج الجيران عندما يجد أبواب شققهم مغلقة، لكن الشقة المغلقة يندر وجودها في يوليو الشهر الذي تتسابق فيه مدينة الغبار مع الجحيم.

أدرك عيب السكن على ناصية؛ إذ جعله يشعر بالمسئولية تجاه عدد مضاعف من الجيران. أخذ يوسع من رقعة نشاطه في الجهات الأربع، وأجبره تزايد الأعباء على التخلي عن الالتزام بموعد الحظر، خصوصًا أن الفيروس لم يلتزم بتلك المواعيد وأخذت الوفيات تقع هنا وهناك في أية ساعة من النهار أو الليل.

للأسف، لم يخل عمل حمادة التطوعي من منغصات كان عليه أن يتحملها بشهامة حتى لو لم يكن هو المخطئ. هو لا يعرف، مثلاً، كيف يجرؤ الناس على المضاجعة دون إغلاق الأبواب، ومن أين يأتون بالروح لهذا العمل في ظل الحر والوباء المستشري! أحيانًا يُفاجأ بهم أمامه، يتسافدون على الكنبات البلدية في الصالة. أحيانًا يكونون في الغرف مفتوحة الأبواب، ويرون ممسحته تمتد من الصالة بهدوء وحذر لتطهير تحت أسرتهم، فيطاردونه بغيظ، يلحقون به أحيانًا فيضربونه ويقلبون جردل الماء العكر بالمطهر على رأسه.

لم ييأس، وواصل العمل ليل نهار. يعود إلى شقته بعد أن يهده التعب، ينام مثقل الضمير بأسرار اليوم التي تأخذ بمطاردته في أحلامه.

لا يعتبر حمادة نوم الرجل مع امرأته أمرًا غريبًا. ولم تأته المشاكل من الأزواج، لكنه رأى الكثير من هذا الفعل يمارسه غير الأزواج. وجعله ذلك ينتبه إلى أن بعض الأطفال يشبهون الجار أو الخال أو العم لا الأب.

واقتحم مرارًا، جلسات تحشيش تضم الرفيع والوضيع. رأى رجالاً كان يحترمهم واقفين في ذل على بسطة السلم أمام شقة تاجر مخدرات يتوسلون إليه كي يبيعهم بالأجل للمرة الأخيرة، والتاجر يشتمهم ويطلب منهم الانصراف والعودة بديونهم القديمة أولاً.

كل هؤلاء أخذوا يكرهون حمادة، ولم يُضعف ذلك من همته، لأن محبته كانت تتعمق في قلوب الأغلبية. الكثيرون يحيونه بكلمات تشد من عزيمته، بعضهم يُضيِّفونه شايًا أو يحلفون عليه ليقبل إصبع موز أو حبة جوافة، وهو من جانبه يمد يده في جيب بنطلونه ويدفع إليهم بكمامة أو كمامتين هدية، حتى كانت الصدمة التي حدثت الليلة. عثر عليه أولاد الحلال مكومًا، غارقًا في دمائه بفعل طعنة سكين، منعتها العناية الإلهية من قتله.

طعنة في الظهر، جبانة كطعنات الفيروس، نفذت إلى إحدى كليتيه. يعرف حمادة على وجه التقريب من طعنه، لكن رغبته في الثأر لن تمنعه من استئناف مطاردة الفيروس عندما يتماثل للشفاء.

# ٦ مارس ٢٠٢٠

سمع وديع العطَّار طنين الذبابة الزرقاء يشرخ الصمت. أحسَّ بانقباض في قلبه خوفًا على شقيقه بديع، دون أن يصل خوفه حد اللهفة؛ لأنه هاتَفه بالأمس.

لا تظهر هذه الحشرة إلا إذا كانت هناك جثة في الجوار. وفي هذه الأيام من السهل أن يموت أحدهم دون أن يدري به أحد حتى يدب التحلل في جثته وتخرج منها هذه الذبابة.

أخذت الضجة تتصاعد كأن ماسًا كهربائيًا أصاب جرس الباب؛ فلم يعد يتوقف عن الرنين. فتح يستطلع، فاقتحمت الذبابة الشقة بأزيزها الوقح. أغلق الباب بسرعة ودار على عقبيه يتابع الحشرة الغازية، ويبحث عن مضرب الذباب. أخذت الحشرة الضخمة تصطدم بالمرايا والثريات وتعاود التحليق في مسارات متعرجة، كما لو كانت مصابة بالجنون. فتح الشرفة فلم تتجه إليها، واتخذت الوجهة المعاكسة عبر الممر المؤدي إلى المطبخ والغرف. لم يكد يضع قدمًا في المطبخ حتى خرجت بأقصى سرعتها إلى الممر.

ظلت تراوغه من غرفة إلى غرفة، دون أن تقترب من نافذة أو تهدأ لحظة ليهوي عليها بمطرقته. جلس يستريح محاولاً تخمين الشقة التي شهدت مولد هذه الحشرة. أخذ يتخيل الجثث الممكنة بالعمارة، مستعرضًا أسماء الذين يعيشون بمفردهم باستثنائه هو وشقيقه.

ـ فريد، حسام، فريدة؟

وجد نفسه يستبعد الشاب الغض والمرأة المهذبة، كأنه هو الذي يوزِّع الأعمار، مُفضِّلاً أن يكون الميت فريد عبدالمحيط الذي يسكن الاستوديو أمام المصعد في الطابق ذاته.

ـ ليمت هو ومريضاته المزعجات.

قال، مستعيدًا عذابات الاستيقاظ من قيلولات مريحة بسبب مريضات يخطئن باب الجار ويطرقن بابه أو تصله تأوهاتهم.

ـ لماذا أتحمل ـ أنا الأعزب ـ توجعات نساء أمرضهن رجال آخرون!

لكن نصفه المتسامح لام نصفه الغاضب على هذا الشر؛ فالرجل لم يفعل له شيئًا يستحق أن يتمنى له الموت، ولم تعد هناك من تزوره. وهكذا اتجهت تخميناته بأمنية صادقة أن تكون هذه الحشرة اللعينة قد ولدت من أحشاء كلب ميت أو قط أو فأر أو عصفور.

جلس ساكنًا للإيقاع بالذبابة، لكنها لم تكف عن الطنين المزعج. تلتقط أنفاسها برهة على ستارة أو سطح الطاولة أو تابلوه معلق على الحائط، ولا تلبث أن تنطلق مثل حجر تقذفه نِبلة إلى جدار آخر، حتى عجزت عيناه عن ملاحقتها. ثم ظهرت مجددًا وحطت على مستنسخ لوحة ويليام إيتي «امرأة بصحبة ذبابة» وقفت بالضبط فوق الذبابة الساكنة على رحبة اتصال العنق الجميل للسيدة بالكتف البضة المكشوفة. رفعت الذبابة الحية جناحيها وبدت غائبة عن الوعي في وضع التزاوج مع ذبابة الرسم.

ـ هذه فرصتكَ للظفر بها!

قال لنفسه، وقام يخطو نحوها بهدوء. طارت الذبابة، وأحس بالارتياح، لأنه لم يضطر لطرقها فوق زجاج اللوحة.

عاد إلى جلسته، وبعد أن هدأ تنفسه وانتظم، حمل المطرقة البلاستيكية وقام مرة أخرى يتربص بالذبابة في الأركان؛ فضاعفت من جنونها، وأصبح من الصعب ترصد مساراتها المتعرجة أفقيًا ورأسيًا. وامتلأت الشقة بالطنين وكأن ما يحاصره سرب ذباب وليس ذبابة واحدة. وفجأة سمع نفسه يؤنب نفسه بصوت عال:

ـ ألم تنته من حرب الذُباب؟

ألقى بالمضرب، واتخذ القرار:

ـ أنا من عليه أن ينسحب دائمًا!

لم يكن يتبقى على غروب الشمس أكثر من ساعة، وهو لم يخرج منذ أيام. سيتمشى هذه الساعة، وعندما يعود ستكون الذبابة قد غادرت من تلقاء نفسها. وارب شيش الشرفة، وشبابيك الغُرف. ارتدي ملابس رياضية وأحكم الكمامة على وجهه، وحمل بطاقته والمفتاح، وخرج.

دهمته رائحة نتانة فظيعة، تطلع إلى بسطة السلم، ورأى كيسًا بلاستيكيًا أمام شقة الطبيب، خطا نحوه فأصبحت الرائحة لا تطاق. أمسك أنفه من فوق الكمامة وضغط زر جرس الاستديو. خرج فريد عبدالمحيط متحفزًا. حيَّاه وديع وأشار إلى الكيس، دون أن يرفع يده عن أنفه.

ـ آسف، يبدو أن عامل القمامة لم يأت منذ ثلاثة أيام، وقد طلبت من سالم أن يصعد ليأخذ الكيس، لكنه نسي فيما يبدو.

لم يبد عليه الرضا بالتفسير؛ فكرر الطبيب أسفه مرة أخرى وأغلق الباب. واستدار وديع باتجاه السُلَّم.

يَعتبر وديع نزول الطوابق السبع جزءًا من التريض القليل الذي يقوم به عندما يخرج لشراء شيء، ويعتقد أن احتمالات العدوى أقل في فضاء السلم الأوسع من فضاء علبة الحديد المتحركة. بنصفه المندفع فكَّر أن يصعد إلي شقيقه الأكبر، ليسأله إن كان بحاجة إلى شراء شيء، لكن نصفه الحذر منعه؛ حيث لا يمكن توقع ردة فعل بديع، الذي أصبح عصبيًا، ومن الصعب توقع ردوده.

# 2

أخذ طريقه هابطًا في النور الشحيح على السلم. لم يسمع من خلف الأبواب ما يوحي بوجود أية حياة داخل أية شقة، ما جعل شؤم ذبابة اللحم العنيدة يغمره مجددًا، مستعيدًا مواجهاته مع الذباب التي انتهت بهزيمته بعد حرب استهلكت أجمل سنوات عمره.

كانت أبحاثة في كلية العلوم تنبيء بميلاد داروين جديد بشهادة أساتذته، لكن البحث العلمي آخر ما يشغل مدينة الغُبار. لم يرض بالعمل موظفًا تحت لافتات مراكز بحثية لا تبحث في شيء، وبعد عامين من البطالة ابتسم الحظ. قرأ إعلانًا عن مسابقة توظيف طرحها مركز بحث أحيائي أسسته مدينة قلعة البحر ليكون الأكبر بالمنطقة.

تقدم للاختبار وفاز بالوظيفة وسافر، ليجد نفسه ضمن فريق متخصص في الذباب. أمضى في الجزيرة الصغيرة سبعة وعشرين عامًا، قضاها في معارك خرج منها منهكًا ومثخنًا بالجراح، رغم أنه لم يتجاوز الخمسين إلا بقليل.

السنوات العشر الأولى قضاها في محاولة تخليق نوع من الذباب لا ينقل العدوى. انطلقت الخطة العلمية من الصفة التي تُميِّز الذباب على سائر المخلوقات؛ فهو يُقبل بالشهية ذاتها على الروث والفاكهة والعسل واللحم، وهذا بالضبط ما يجعله فتَّاكًا.

كان طموح الفريق تخليق جيل من الذباب لا يتذوق إلا القاذورات فينشغل بها عن سواها. بعد إخفاق مئات التجارب لخلط چينات ذبابة الاسطبل وذبابة الجثث بجينات الذبابة المنزلية وذبابة الفاكهة وذبابة الزهور والذبابة الصيَّادة، أُصيب الفريق بالإحباط وتأكد له عناد الحشرة وتمسكها برحابة ذائقتها، التي جعلتها عصية على الحصار، لا تبالي بانقطاع خطوط الإمداد في أية حرب تدخلها، مهما طالت تلك الحرب.

السنوات العشر التالية ضاعت في محاولة إخراس الذباب. لم يكن وديع يعرف كل شيء عن بواعث الخطط البحثية. بعضهم قال إن ذلك البحث يفتقر إلى أي هدف عملي، وإنه بدأ في ذهن رئيس المركز بأمل تعويض الهزيمة السابقة ورفع معنويات الباحثين، والبعض قال إن المشروع أتي من سلطة أعلى من سلطة رئاسة المركز، لأن طنين الذُباب يُعكِّر صمت الجزيرة.

انخرط وديع مع فريقه في العمل، وبدا أن طموح المشروع أكثر قابلية للتحقيق. شرعوا في تجارب تهجين الذباب مع البرغش والفراش، لكن العناد كان أقسى وخرج جيل ملون من الذباب جميل المنظر، بطنين مخيف يرتفع ويثير الغبار قبل أن يبرح مكانه مثل الطائرات المروحية. وتوقع أعضاء الفريق أن يتلقوا خطابات بإنهاء عقودهم بعد الهزيمتين المتتاليتين، لكنهم فوجئوا برئيس

أقسام الحشرات يجتمع بهم، ويشرح لهم التوجه الجديد في المركز تماشيًا مع خطط جديدة لمكافحة العبوس بالجزيرة.

وهكذا بدأ المشروع الثالث لدراسة سر سعادة الذباب. كان البحث مثيرًا واكتشف وديع أن استغراق الذباب في المتعة الصامتة يصل إلى حد التهور والاستهانة بالخطر. يقضي في الجنس أضعاف الوقت الذي يقضيه الإنسان مستغرقًا تمامًا حتى أن الجماع هو الوضع المثالي لقتله، بينما يستحيل بقاء اثنين من البشر في هذه الحال من الاستغراق ثانية واحدة عند الاستماع إلى أدنى حركة خارج الغرفة. لا يشبع من طعام ولا يرتوي من شراب، ولأن حليمات التذوق في أقدامه، يبدأ نهمه بمجرد أن يحط على أي شيء صالح للأكل، دون حذر من سيولة أو لزوجة قد تودي بحياته.

وبعد سبع سنوات من الركض وراء شهوات الذباب لم تبدُ أية مؤشرات على النجاح في تحديد الجينات المسئولة عن السعادة لدى الحشرة الشرهة، كما لم تبد دلائل على الهزيمة، لكن وديع حنَّ إلى غبار مدينته وعاد.

غارقًا في الذكريات، واصل دورانه الحلزوني علي السلم، حتى وجد نفسه في مدخل العمارة. تناهت إلى مسامعه أصوات أبناء البواب من داخل الغرفة، بدت بعيدة وأكثر خفوتًا من طنين ذبابة منزلية.

وبينما يخطو إلى الشارع الصامت. دهمه حزن كريح صفعت وجهه. لقد تعايش مع مثل هذا الصمت في الجزيرة النائية، لكن صمت مدينة الغبار الصاخبة ينتش القلب، مثل رؤية طفل حيوي راقدًا، ولو بسبب نوبة برد. أخذ ينبش في ذاكرته عن حزن مثيل للحزن الذي لفَّ به الوباء وجه المدينة. تذكر شيئًا كالحلم عن حرب قديمة على الحدود.

كان طفلاً، لهذا لم يتذكر من ذلك الحزن سوى عشاء على النور الخافت للمبة جاز كانت تتوسط طبلية يتحلق حولها مع أبويه واخوته الأربعة. كان زجاج الشباك المطلي بالأزرق مغلقًا حتى لا يتسرب النور للخارج، رغم الحر الخانق.

ـ هل كان لطائرات العدو غموض الوباء وقدرته على المباغتة؟

في التقاطع، انعطف يمينًا قاصدًا الحديقة الصغيرة، متوقعًا أن تكون السلطات نسيتها وأفلتت من الإغلاق. وصل إلى الجهة الشمالية للحديقة، ورأى الباب مفتوحًا فابتهج لحسن توقعه، وقبل أن يدخل، ضرب بعينه إلى الداخل؛ فأحس برهبة الصمت. ربما كان هذا الباب المفتوح فخًا اصطنعه لصوص ليستدرجوا به ضحية إلى داخل الحديقة الخالية.

حدَّق مجددًا في الجهة المقابلة، ثم مسح جهتي اليسار واليمين . تأكد من وجود بابين آخرين مفتوحين؛ فأحس ببعض الأمان وعبر الباب متقدمًا بحذر فوق المسار المُبلط.

خطوة بعد أخرى بدأ يألف الحديقة. شد قامته وشفط بطنه ومضى بالخطو الرياضي ليستفيد من مشيه. رأى العشب ميتًا وأسيجة شجيرات الورد ذابلة، تقف على بعضها نحلات عليلة تتشبث بالرحيق الشحيح، لكن الأشجار الطويلة ونخيل الزينة الكبير على حاله.

أغراه أنه وحيد؛ فبدأ تمرينات الفكين التي تعلمها من مقطع فيديو لمقاومة تدهور جلد الرقبة.

ـ كيف يشيخ الإنسان هكذا فجأة؟!

كانت رقبته على ما يرام قبل الحظر، ويبدو أن التدهور حدث بسبب اضطجاعه على السرير معظم الوقت برأس مائل إلى كتاب أو التليفون، في غياب صحبة حقيقية، رغم أنه دفع في هذه الشقة ثلثي ما يملك، ليكون بجوار أخيه الوحيد المتبقي على قيد الحياة.

نصفه المندفع جعله يُقدم على شرائها، بينما كان نصفه الآخر يُحذِّره من تبديد مدخراته في شقة غالية إلى هذا الحد، خاصة وأنه تخطى السن التي يمكن أن يحصل فيها على عمل. وقد حدث ما كان يخشاه. لم يجد أخاه الذي يعرفه. بديع مشغول دائمًا، وإذا جلس معه يكون حاملًا هموم الدنيا على رأسه، حتى أنه اقترب من الهذيان. ينطلق فجأة:

ـ المؤرخون لا يدونون الحقيقة، بل يرسمون ظلالاً قد تشبه وجهها. ولا بديل إلا ألم الصمت الذي لا يطاق. هل تعرف ألم الصمت يا وديع؟

ووديع يعرف ألم الصمت، ولهذا السبب بالذات لا يريد أن يدخل إلى عقل شقيقه، حتى لا يعلق هناك ويتبدد القدر الضئيل من عمره الذي استنقذه من الذباب؛ فكان يتركه في مكتبه، مكتفيًا بصحبة الزوجة المرحة والولدين اللذين يحبهما مثل نور عينيه.

ـ تعال، تعال، دعه مع تاريخه وجغرافيته.

تقول إحسان، ويجلس معها وديع أمام التليفزيون حتى يعود الشابان من عمليهما. تُحدِّثه عن عملها في الصحافة الذي تقاعدت منه، ويُحدِّثها عن طبائع الذباب. لكنها انتقلت إلى وادي العدم وتزوج حازم ويونس وانتقلا إلي شقتين في الضواحي، فلم يعد وديع يتشجع على طرق باب بديع بسهولة.

# 3

بدأت شمس الغروب تختفي خلف العمارات العالية. تطلع إلى الشرفات والشبابيك التي تطوِّق الحديقة الصغيرة بينما يواصل تمارين الفكين خلال دورانه.

ـ من يرى هذه الحركة سيعتبرني مجنونًا.

قال نصفه الحذِر، بينما شجعه نصفه الآخر مستبعدًا أن تظهر تفصيلة كهذه من مسافة كتلك.

ـ ثم، ماذا يهم، إنك لم تكشف عورتك؟

قال نصفه الجريء لنصفه الخجول وتابع فتح وإغلاق فكيه متحسسًا عروق رقبته، ولم يعد يلاحظ ما حوله، لأن التمرين يتطلب رفع رأسه. وعلى هذا النحو أوصلته هرولته العشوائية نصف العمياء إلي ركن من العشب يفترشه عدد ضخم من الكلاب الضالة. تحفزت وهبَّت من فوقها عاصفة ذباب. جفل، لكنه حاول أن يبدو واثقًا في انسحابه، مع ذلك بدأ بعض الكلاب في التحرك نحوه؛ فأخذت دقات قلبه بالتصاعد، مرعوبًا من احتمالات أن تأكله هذه الوحوش.

ـ يعلم الله متى أكلت لآخر مرة!

همس لنفسه لدرجة أن نصفه الشجاع لم يسمع نصفه الجبان، بينما حل الهلع بمفاصل ساقيه، وتحولت خطوته الرياضية إلى قفز مرتبك، لا تكاد قدمه تمس الأرض، وأحس أنه صار في انحلال وهشاشة الهواء، يستطيع أي طائر أو طفل يجري أن يعبر إلى الجهة الأخرى من خلاله دون أن يحس بأية إعاقة.

عندما ابتعد قليلاً تراجعت الكلاب الثلاثة التي تنمرت عليه وعادت إلى تهافتها على العشب؛ فأخذت ضربات قلبه تتباطأ بينما تستعيد خطواته ثقتها ويستعيد معها إحساسه بثقله على الأرض. عاد يسترق النظرات إلى الكلاب، لعله يتوصل إلى معرفة مدى جوعها الذي يأمل ألا يكون قد وصل إلى حد يدفعها إلى الجنون ذات لحظة.

بدأ في التوجه نحو الباب القريب، لكن شابًا ربعة دون الثلاثين في ملابس بسيطة ظهر فجأة. أدرك وديع من هيئته أنه البستاني. حياه وسأله عن موت العشب.

ـ خط المياه العكرة معطل بسبب الكباري التي يشيدونها في الجوار.

قال العامل؛ فعاد وديع يسأله:

ـ منذ متى؟

ـ منذ شهر.

ـ ومتى تعود المياه؟

ـ لا أعرف.

ـ أليس في إدارة الحي من يمكن أن تسأله؟

ـ لا أحد.

ـ وهذه الكلاب، هل هي خطيرة.

ـ ليس دائمًا.

ـ هل هناك من يحمل إليها طعامًا؟

ابتسم البستاني للمرة الأولى، وأخذ يتفحصه قبل أن يجيب:

ـ هذه كلاب ضالة، يا حاج، تأكل من حاويات القمامة في الشارع، ستراها تنتشر الآن، ولن تعود إلا في ظهيرة الغد لتستريح.

أخذ العامل يتفرس وديع العطَّار مجددًا، فحيَّاه وشد قامته معاودًا السير على الممرات المتشابكة، وكانت الشمس قد غابت تمامًا.

نظر إلى المسجد الذي يحتل نحو ثلث الحديقة في جهتها الشرقية. كان مظلمًا من الداخل، صامتًا هو الآخر. بدأت خرخشة مكبرات الصوت المثبتة على الجهات الأربع فوق المئذنة، ودون إضاءة الأنوار بدأ الآذان مزلزلاً. في الصوت قوة تهز صمت الحي وتشتبك في عراك مع أصوات المساجد الأخرى القريبة.

ـ لا يمكن أن يكون هذا مؤذنًا، نبرة الصوت عامية جدًا. لابد أن مؤذن هذا المسجد كلَّف بوابًا بالمهمة.

ما إن فكَّر وديع بهذا حتى انتهى الآذان المعتاد، وانخفض الصوت في لاحقة الأوبئة التي بُعثت من كتب الفقه القديمة «ألا صلوا في رحالكم، ألا صلوا في بيوتكم» النبر مثقل بالأسى مثل توجع أسد جريح. تعرَّف وديع على صوت البستاني الذي لم يُميِّزه في الطبقة العالية.

أرهقت اللاحقة الحدادية قلبه، وعاد الصمت يطبق على الفضاء؛ فشرع في المغادرة يجر رجليه جرًا.

قبل أن يصل إلى باب الخروج دخلت سيدة تشد رسن كلب أسود من نوع بولدوج، لا المرأة ترتدي الكمامة ولا الكلب، لكن غطاء الرأس في إسدالها المبرقش بلون النمر، يخفي وجهها. لوهلة تخيلها طِعمة؛ فهي في مثل طولها ونحافتها، لكنها محدودبة قليلاً. مظهرها المتواضع يتناقض مع سيماء النعمة والثراء البادية على الكلب، لكن خطوها لا يعاني انكسار خطو الخدم.

أخذه فضول متابعتها؛ فتظاهر بأنه لم يكن ينوي الخروج. استدار وقد دبت الحيوية في حركته. وسمع صوت نصفه الذي عزم البقاء يوبخ النصفَ الذي يريد أن ينصرف:

ـ خِفتَ من حلول الظلام، بينما تبدأ امرأة تريضها؟

لكن النصف الذي يميل إلى الانصراف أحرج النصف الآخر:

ـ كن صريحًا، ماذا تريد بالضبط؟

جدَّ في الدوران، بينما يرمق المرأة التي جلست القرفصاء على العشب الميت وأطلقت الكلب يلهو حولها.

لو جلست على أحد الدكك الخشبية الموزعة عند انعطافات الممرات، لكان بوسعه أن يكلمها عندما يمر بها تلقائيًا، لكنها اختارت أن تجلس في قلب حوض من النجيل المحروق. انتبه إلى أن خيارها هذا بالذات يمكن أن يكون منطلقًا للحديث معها.

ـ سأخاطبها: مساء الخير، لماذا تجلسين هكذا؟ ألا تشعرين بالخطر؟ لا، لا، هذا الاستفهام قد يدفعها إلى الغضب.

ـ ستقول ما شأنك أنت؟

ـ سأخاطبها بعبارة واحدة. مساء الخير، هذا النجيل قد يكون خطيرًا! لا، لا، قد يناسبها. «السلام عليكم» نعم. السلام عليكم، هكذا سأخاطبها.

ثم فكَّر أن هذه التحية تغلق إمكانيات تطوير العلاقة، وأخذ نصفه المتردد يسخر:

ـ أية علاقة؟

تبسَّم ضاحكًا، بينما يبتعد، يفكر فيما يمكن أن يقوله، عندما يعود قريبًا منها. عندما صارت وراءه أحس برغبة ملحة في الالتفات، محاذرًا من أن يبدو متلصصًا. يسأل نفسه عما يجذبه إلى امرأة لا

يكاد يتبينها.

ـ الغموض، ربما؟

استغرب نصفه الحذِر سر العزيمة التي تدفعه نحوها، ولم يعهدها في نفسه من قبل. أخذ يُصقل كلماته في خياله:

ـ مساء الخير، أخشى، أقصد قد تكون هناك حشرات مخفية في هذا العشب، نمل، يرقات ذباب، أو ما شابه.

اقترب منها، وهمَّ أن يقول ما تدرب عليه، لكنه أفلت منه، وابتعد دون أن يقول شيئًا.

# 4

قامت المرأة بتؤدة تنادي الكلب الذي كان يتقافز حولها في دوائر تتسع، أخذت تتوغل، والكلب يدور حولها في مسار إهليلجي. وبدأ وديع يفتقدها عندما صارت خلف دغل كثيف من الجهنمية، يفترش الأرض وتتسلق أغصانه جدار غرفة الموتور في زاوية ملاصقة لسور الحديقة. استشعر برودة العرق تتقطر من كل جسمه، فأخذ يحوم حول الزاوية الغامضة دون أن يجرؤ على الاقتراب، بينما يفكر:

ـ هل ثمة شيء بينهما؟

وأخذ يتصور بتلذذ حاسد لقاءً في غرفة الموتور بين المرأة النحيفة والبستاني الشاب المدكوك كمطرقة:

ـ سيكون لقاءً استراليًا!

حميَّ دمه بينما يستعيد في خياله صورة الذبابة الأكثر شراهة في الجنس، وقد رأى بعينه أزواجًا من الذباب الاسترالي تتجاوز الثمانين دقيقة من الاستغراق العميق في التزاوج. غمرته موجة جديدة من الغيرة، ورد على نفسه بتأنيب:

ـ كل هذا لأنك فشلت في محادثتها؟!

وواصل اندفاعه على الممرات المتشعبة، مقاومًا الإجهاد، منهمكًا مع نفسه في حوار حاد.

البعض يعتبر الحديث مع الذات مرضًا نفسيًا، لكنه مجرد تحور بيولوجي، ودليل مرونة چينية منحت الإنسان عناد الذباب وجعلته موجودًا حتى الآن بينما انقرض الديناصور.

بفضل هذه المرونة البشرية صمد وديع كل تلك المدة في قلعة البحر. في البداية بدت له حلوة، جيدة التنظيم، ومفهومة. لكنه بدأ يملها تدريجيًا، حتى أمان القفص الذي تحياه بات لا يُعجبه. أخذ يتهكم بينه وبين نفسه، متصورًا احتفالات تقيمها المدينة بمناسبة مولد أول قاتل من أبنائها، أو حفلاً لتكريم شخصين تشاجرا، أو امرأة تفوهت بأول كلمة نابية في المدينة.

في ظل ذلك الانضباط وجد نفسه مثل الكائنات وحيدة الخلية. ليس في حياته سوى ذباب المعمل والأكل والنوم، وبين الحين والحين تحققت له لقاءات مع نساء، في انهماك صامت. تحويم حذر، وحديث بالعيون، ثم الغرق بالجناحين في طبق العسل حد الموت.

لم تنته السنة الأولى من إقامته هناك حتى بدأ ينتفخ بالكلام المؤجل، وأخذ الانتفاخ يتعاظم طوال العام الثاني حتى انقسم في السنة الثالثة إلى شخصين على طريقة الكائنات وحيدة الخلية في التكاثر.

عندما حدث هذا التوالد الذاتي عرف راحة الاستغناء. أصبح رجلاً وامرأة، رعديدًا وشجاعًا، ثرثارًا وصموتًا، كريمًا وبخيلاً. كل نصف منه يجد نصفًا آخر يُمتعه ويواسيه ويمنعه من التهور عند الضرورة، حتى الإحساس بلهيب الطقس كان محل اختلاف بين نصفيه.

وبعد عودته لم يفقد هذه المهارة. ساعدته على ألا يتسول التواصل مع أحدهم، وهذا ما يجعله يعيش الحجر المنزلي بكل ارتياح حتى لو تواصل إلى الأبد.

أرهقه التفكير أكثر مما أرهقه المشي؛ فقرر المغادرة. مد قامته مجددًا ليستفيد من مزايا المشية الرياضية حتى البيت، كان العرق يبلله، لكنه لم يركن للهزيمة.

ـ وَغَدٌ أمر.

قال نصفه الجسور واعدًا نفسه بالعودة إلى الحديقة حتى يعثر على السيدة مجددًا، واستأنف تمرينات الرقبة متطلعًا إلى الشرفات الخالية بفخر المنتصر، وكأنه حاز هذه المدينة بالقتال.

دخل العمارة مترنمًا ببداية أغنية قديمة، فأخجله صدى صوته في المدخل الصامت. استدعى المصعد ضاغطًا زره بثنية قبضته. وعندما دخله أخذ ينشق الحد الأدنى من هواء غير آمن. عندما غادر المصعد تفقَّد رحبة السلم، كانت قمامة الطبيب قد رُفعت.

دخل الشقة وأحكم إغلاق الشبابيك قبل أن يفتح الضوء، أحس بالارتياح عندما لم يجد الذبابة، وفكَّر في منح نفسه أمسية مختلفة. اختار فيلمًا على شبكة الأفلام المدفوعة، شاهده مع عشاء لذيذ ثم نام مغتبطًا، واستيقظ في الصباح مرهقًا، وعندما استوعب شقته أحس بالحيوية وغادر الفراش سعيدًا. أفطر بشهية طيبة، وتابع طقوسه اليومية بهمَّة في انتظار ساعة الغروب.

# 5

لم يتخلف يومًا عن الحديقة، ولم تتخلف المرأة ذات الكلب. انتهى الشتاء وبدأ الربيع دون أن يحمل أملاً لعشب الحديقة الميت، ليس هناك من يرتادها غيرهما، حتى البستاني لم يعد يظهر. بدا أثر التريض اليومي على عضلات ساقي وديع ورقبته، واختفى مع الوقت ترهل بطنه. صار أوسم وأصغر ببضع سنوات، لكن لسانه ظل على ضعفه، لا ينطلق إلا عندما يُكلِّم نفسه، إلى أن تعارفا في بدايات الصيف.

كانت سخونة الهواء لئيمة في ذلك الغروب، جعلت عرقه يتصبب بغزارة. جلس على الدكة مستقبلاً الباب الجنوبي لتكون السيدة في مرمى بصره تلقائيًا عندما تصل. لم يكد يستريح حتى دخل الكلب مفلوتًا، ودخلت وراءه.

ـ ممتاز. واضح أنك ترغبين فيما أرغب!

قال نصفه اللعوب، ولو كانت المرأة أقرب قليلاً لسمعته. فوجئ أن صوته خرج عاليًا جدًا، ليس تبجحًا، بل ارتفاع السهو الذي يقع فيه الأصم عندما ينسى المستوى المقبول من الصوت.

كانت المرأة تتقدم خلف كلبها، فقام يتمشى في اتجاه البوابة. عندما حاذاهما، فوجيء بالكلب يقطع الجزيرة الفاصلة بين الاتجاهين بقفزة واحدة متجهًا إليه. تجمد في مكانه، ناظرًا إلى المرأة بعينين متوسلتين.

ـ أكمل لا تخف، يريد أن يلهو معك فحسب.

قالت، ونادت على الكلب:

ـ ليل!

أطاعها الكلب وعاد إليها هاشًا، فأكمل وديع مساره مستأنفًا الصلابة الرياضية لأعضائه كما لو كان إنسانًا آليًا ضغطوا فيه زر الانتصاب. ضحك نصفه الساخر بصوت عال، وتلفت النصف الآخر ليرى إن كانت المرأة منتبهة إليه أم لا.

دار دورة فصارت المرأة أمامه. كانت تمشي في هدوء كأنها تنساب فوق الماء، لا يمكن أن يتبين خطوها داخل إسدال يكنس ذيله الأرض. وتراءى له أن حدبتها أقل مما كان يتصور طوال الوقت. كانت تحمل وجبة الكلب في لفافة، والكلب يسبقها بخطوة ثم يرتد إليها، يرفع رأسه إلى الحقيبة، ثم

يعود ليسبقها مجددًا. ربما سمعت خطو وديع يقترب، لأنها انحدرت مع كلبها إلى مدق فرعي، لكنه كان يراها.

نصفه الحذر لاحظ أن نصفه المتهور يدفع ساقيه لتتبع المرأة، فنهره بصوت حاد:

ـ إن فعلت ذلك ستفزع منك وتثير فضيحة.

قرر أن يدور دورة أو اثنتين في تشعبات مختلفة، ليبدو تقاطعه الجديد معها عفويًا. واستسلم نصفه المتهور دون نقاش للخطة التي رسمها نصفه الحذر. أخذ يدور ويدور، بينما كانت ستائر العتمة تهبط على الحديقة طبقة بعد طبقة، وكان نور الأعمدة القليلة غير الخربة مثل سكين مثلومة يكاد لا يجرح المساحات سابغة الظلمة تحت الأشجار وبين أدغال شجيرات الورد والصبَّار. وبدأت الكلاب الضالة تتسلل واحدًا وراء الآخر إلى الشارع. واكتشف وديع أنه أمعن في تمثيل عدم الاهتمام بالسيدة حتى افتقدها بالفعل، لكن حفيفًا خفيفًا جعله متأكدًا من أنها لم تتصرف.

أرهف سمعه فوصله صوت مناجاتها للكلب. صوتها جميل، كيف لم يلحظ ذلك! حاول أن يتذكر اسم الكلب لكي يلاغيه، كمدخل لكلام معها، لكنه لم يتذكر. في تتبعه الصوت والرائحة مضي بالخطو الرياضي، حتى بدا نصفاه مقتنعين بأن لقاءه المرتقب بالمرأة سيكون أكثر من عفوي. كانت واقفة على حرف أورمة دفلى كثيفة بجوار ممر فرعي، والكلب المنهمك في الأكل تحت قدميها رفع رأسه فجأة وانطلق نحو وديع، فأخذت تناديه:

ـ ليل، ليل!

ثم هتفت بوديع:

ـ أكمل طريقك، لا تخف.

لكن وديع لم يعد لديه عقل ليأمل في تراجع الكلب، حاد عن الممر وألقى نفسه بين يديها، متشبثًا بها. لم ترده أو تجري فزعة منه. بل طوقته بيديها وأخذت تربت على ضهره.

ـ لا تخف، لا تخف.

قالت، وتمسكت به أكثر. كان بحاجة إلى هذا الاحتضان. التصق بها. وصله تنفسها هادئًا منتظمًا من تحت نهدين مثاليين، بينما كان تنفسه مضطربًا. نصفه الحذر يتخيل أنها تصده برفق، نصفه الراغب يحسها تشده.

أخذت تهتف به:

ـ أكمل لا تخف، لا تخف، أكمل.

لم يعرف كم مضى من الوقت عندما تراخت ذراعاه عنها. لم يقل شيئًا، ومضى لا يلتفت وراءه، محاولاً دون جدوى استعادة خطوه الرياضي، بينما تتكرر في أذنه عبارتها:

ـ أكمل لا تخف.

# ٢٤ مارس ٢٠٢٠

عندما أصبح حظر التجول إجباريًا صار سالم في غاية السعادة.

لم يعد مضطرًا لسماع اسم زوجته أكثر من عشرين مرة كل صباح، ومثلها بعد الظهر، دون أن يحتسب النداءات من المنْور، ورنين تليفونها الدائم، رغم أنهم يعرفون تليفونه.

ـ صباح الخير يا طِعمة.

ـ سيارتي جاهزة يا طِعمة؟

ـ طلبتِ السباك يا طِعمة؟

ـ كليو طماطم يا طعمة.

ـ أتوبيس المدرسة وصل يا طِعمة؟

كل هذا كان يثير غيظه، ولا يعرف كيف يتصرف. هم بهوات، وأعمارهم تقترب من عمر والد طعمة ووالده. يقولون له أنت ابن العمارة، وأحيانًا «أنت ابننا» لكن كل ذلك لا يبرر أن يكون اسم طعمة مضغة في أفواههم. هو بواب العمارة وليست طِعمة، لكنهم يتجاهلونه، ويختلقون الأسباب للحديث معها.

الآن، أغلقوا أبواب شققهم على أنفسهم. لم يعد هناك من يخرج إلا للضروري، وأصبح بوسعه أن يُفوِّت أيامًا دون أن يغسل سياراتهم. بين حين وحين، يمرُّ الواحد منهم مُقنَّعًا تحت الكمامة والنظَّارة، لا يكاد يُميِّز شخصًا من الآخر إلا من طوله وعرضه، وهذه ليست علامة فارقة؛ فبعضهم يتشابهون في الطول والعرض. كان يُميِّز بينهم من تفاوت مستوى أناقتهم، واختلاف مشياتهم. منهم المهرول، المعتدل، المتأني ولكن برشاقة، والمتهدل الذي يجر رجليه جرًا.

هزمهم الوباء. جميعهم أهملوا هندامهم؛ يخرجون في جلابيب بيضاء مدعوكة من أثر النوم فيها، يمضون متهدمين يجرُّون أقدامهم جرًا، أحيانًا لا ينتبه للواحد منهم إلا بعد أن يمر من أمامه؛ فيراهن نفسه: من هذا؟ يخطئ مرة ويصيب الأخرى. مع الوقت اكتشف بصمة الردفين. وهكذا أصبح يُميِّز بينهم دون خطأ.

ـ كيف عرفت أنه الحاج مصطفى؟

تسأله طِعمة فيضحك في سِره ولا يجيبها؛ لأنه يفرز النساء بالطريقة ذاتها، وإن بجهد أكبر، لأن ملابسهن الفضفاضة أكثر من ملابس الرجال تجعلهن متطابقات بشكل غير معقول. يخرجن للتمشية أو شراء لوازمهن بملابس البيت، غالبًا الإسدال الواسع فوق البيجاما، أو فوق قميص النوم، يسبحن أكثر مما يمشين.

ـ آه لو انكشفت يا سالم!

مع مرور الوقت بدأ يلاحظ الاختلافات في مشاعر الأرداف، يرى العبوس في تلك ويتلمس الفرح في أخرى، الاطمئنان، الخوف، الكسوف، التباهي. كل المشاعر التي يستطيع الناس إخفاءها في ملامح وجوههم ونظرات عيونهم، بدت واضحة له في المؤخرات، لأنها عمياء لا تعرف التحفظ، وبات يعرف السكان أكثر من أي وقت مضى خلال سنوات عِشرته الطويلة معهم.

جاء إلى المدينة صبيًا في الثالثة عشرة، جلبه قريبه البواب المسن لكي يساعده في أشغال ثلاث عمارات يمسك بزمامها، وبعد مدة أحس سكان هذه العمارة بخفة سالم. ورأوا أنه بثَّ روحًا جديدة؛ فانتشلوه من استغلال قريبة، وجعلوه يستقل بعمارتهم. هيأوا له غرفة في مسقط النور، صنعوا له سقفًا خشبيًا، ووضعوا فيه سريرًا وثلاجة وموقدًا وبعض الأواني من خَرج شققهم، وبنوا له حمامًا في الفراغ الخلفي للعمارة، وظل على هذه الحال خمس سنوات، يجتهد في العناية بالمدخل والسلم والمصعد ويغسل السيارات ويلبي طلباتهم في شراء الخضر والبقالة ويخف لمساعدة من يحملون أثقالاً. رغم أنه يعاني من عرج خفيف بسبب قِصر طفيف في إحدى ساقيه عن الأخرى إلا أنه يتقافز مثل عصفور، يكاد لا يمس الأرض، ولا يمكن التحقق من عرجه إلا بالتدقيق الشديد.

أحبوه جدًا، رغم أنه سريع الغضب. يسب الدين بسهولة ويتلفظ بما يخدش الحياء عندما يتعارك مع بواب آخر أو بائع جوال، إلا أنه لا يرفع عينه في أحد منهم. يفخرون بأنه «تربية أيديهم» ويدافعون عنه في مواجهة أي ساكن جديد في العمارة إن عامله بما لا يليق. يجمع مساهمات الشقق في الخدمات أول كل شهر، يقتطع أجره، ويحتفظ بالباقي لرئيس اتحاد المُلاَّك الذي يتولى محاسبة عمال الصيانة وتسديد فواتير الكهرباء والماء.

ما يتقاضاه سالم عن غسيل السيارات يسند أجره البسيط، وهناك البقشيش عند شراء الطلبات، كما إنهم لا ينسونه في الصدقات والزكاة، التي يخرجونها في كل الأحوال، ويوزعونها على من يعرفون ومن لا يعرفون.

يذهب إلى القرية خميسًا وجمعة مرة في الشهر، ويعود مهمومًا بأمه التي يعاملها أبوه أقسى معاملة رغم أن ما يحمله إليهما من لحوم وفواكه ونقود أخرجهما من الضيق. اشترى خمسة وخمسين مترًا وبنى فوقها بيتًا على ستين مترًا، أثثه بأثاث رائع مما يستغني عنه سكان العمارة، وترك لأمه مفتاحه لتعتني به ويمكنها أن تلتجئ إليه في أي وقت تشاء، بعد ذلك كان لابد من إتمام نصف دينه.

خطب في إحدى إجازاته فتاة رشيقة القد جميلة الخد وبعد إجازتين، ثلاث، تزوج وقضى مع العروس أسبوعًا، ثم تركها وعاد. هي أجمل فتاة في القرية والعِزَب المحيطة بها. هذه ليست مبالغة، ولو دخل في منافسة مع الأغنياء لم يكن لينالها بالطبع، لكن من حسن الحظ أن الجمال ليس عُملة رائجة في القرية.

مهما كان عمر الرجل الغني ومهما كانت دمامته، ومهما كان قبح الفتاة ذات الميراث الجيد فإن أحدهما يجد طريقه للآخر. لا تتزوج الحيازة الزراعية إلا من حيازة تماثلها، وتبقى الفقيرات مهما كن جميلات ينتظرن الخاطبين من الفقراء.

هكذا كان سالم أفضل من تقدم للزواج من فوزية. ولأن أمه لم تعد تحتمل الذل بعد أن صار لابنها بيت مستقل، انتقلت للعيش مع عروسه، وبدأت في تزويده بملاحظاتها على سلوكها، مع من تتكلم في غيابه، ماذا تسمع من أغنيات، كيف تتزين قبل الخروج، كيف تتقصع في مشيتها. وسالم الذي لا يرد لأمه رغبة طلَّق فوزية بعد أن سب الدين لها ولأمها الهبلة التي لم تحسن تربيتها.

# 2

بعد عامين أو ثلاثة من الطلاق بدأ السكان، الذين ينظرون إلى سالم نظرتهم لابنهم، يسألونه عن أحواله، ونصحوه بالزواج مرة أخرى، على أن يأتي بها هذه المرة لتؤنسه وتكون تحت عينه.

ـ الرجل منا لا يترك شابة بعيدةً عنه بعد أن تعرف ذلك الشيء!

وجد سالم الكلام معقولاً، فخطب طِعمة في إجازة وتزوجها بعد أربع إجازات. قضى معها أسبوعًا هناك وعاد بها. استقبلها السكان أحسن استقبال، ومنحوها نقوطًا، وعندما بدأت تصعد بما يطلبونه من مشتراوات أخذوا يميِّزونها عن سالم في البقشيش. الجميع في الحقيقة اهتم بطِعمة، الرجال والنساء والأطفال، وهي تحب الكلام والمناغشة.

ـ مهووسون بالأشياء الطازة، حتى اللهجة.

قال لنفسه متذكِّرًا استقبالهم الدافئ له، وكيف كانت لهجته محل مداعباتهم. لكنه بعد كل هذه السنوات في مدينة الغبار أصبح يتكلم مثل أهلها، ولا يظهر في كلامه إلا القليل من الأثر للهجة القروية التي تتحدَّثها طِعمة بكل خشونتها. هل هي اللهجة حقًا ما يجذبهم في طِعمة؟ هل يدهشهم اكتشاف أن هذه الطريقة في الكلام لم تزل حية بعد أن تصوروا أنها اندثرت مع تغير لسان سالم؟ هل يعدون طِعمة ابنتهم مثلما عدوه من قبل؟ هي في السادسة عشرة، ولم تزل لديها خشونة الصوت المراهق المرتبك بين الأنوثة والذكورة.

في البداية أرضاه قبولهم لها؛ لأن رفضهم سيُنغِّص عليه عيشه، وهي، على كل حال، ليست من النوع الذي يُلهب الغيرة، وقد اختارها غير مميزة، حتى لا يتعرض لما أصابه من غدر فوزية.

تندرت أمه على اختياره:

ـ ليس فيها من الطعامة إلا اسمها.

لكنه أصرَّ. وهو سعيد بأنها سوداء، وجسمها غلامي يكاد لا يُرى، ولا يبدو لها نهد. ما حاجته للحم المرأة؟! هو شاب مكافح يحب أكل عيشه أكثر من أي شيء آخر، وكل النساء في الظلام سواءٌ.

ـ لن أدخل بها مسابقة ملكة الجمال.

شرعت في مساعدته بعد أيام معدودة من وصولها، وأسعده أنها خفيفة كما توقع؛ تتنطط بجردل الماء والفوطة الزفرة في يدها من سيارة إلى سيارة. بدت أسرع منه في الغسيل. تعرفت بسرعة

على سيارات العمارة، وتكتشف مكانها أينما باتت ومهما تداخلت مع سيارات العمارات الأخرى، تُمسك جانبًا من الشارع، وهو يوازيها على الجانب الآخر؛ فينتهيان قبل أن يستيقظ أحد. يدخل الغرفة ليستأنف النوم ساعتين كما اعتاد، بينما تأخذ هي دُشًا وتُغيِّر جلباب العمل، وتجلس في مدخل العمارة، يحييها الهابطون والصاعدون.

بعد شهرين أو ثلاثة، فقدت النساء الحماسة لطِعمة، بل إن بعضهن بدأن يعاملنها بعدوانية، يُقصِّرن في الكلام معها ما أمكن.

لا يبدو أن احتمال استيلاء طعمة على الزوج كان السبب الوحيد لنفور امرأة منها، لكنها جريئة جدًا، بل وقحة. إذا تخطت عتبة شقة لأي سبب تتطبع محتوياتها في ذاكرتها بدقة بالغة، وتنتظر أيامًا ثم تبدأ طلباتها على أوقات متباعدة. دولاب صغير لملابسي يا مدام. كمبيوتر لابن أخي في البلد يا حاجة. بعكس موقف النساء، كانت بشاشة رجال العمارة لها تتزايد، وبدأوا يهزرون معها هزارًا لا يستريح له سالم ولا يمكنه أن يمنعه.

ماذا يجدون فيها؟ هل كان على خطأ عندما حسب الأمور على الذوق السائد في القرية؟ كلما لاطفها أحدهم يعود سالم إلى التدقيق فيها. هي فرعاء، أطول منه بشبر وقبضة يد. وبفضل هدايا الطعام التي تضاعفت منذ وصولها بدأ وجهها يلمع، وظهرت تقاطيعه، واكتشف سالم مندهشًا أنها تقاطيع جميلة جدًا، وبدأ نهداها ينهدان لطيفين فوق بطن ضامر، وامتلأت إليتاها واستدارتا، حتى أنه بدأ يتوتر، ويطالع الشرفات والنوافذ كلما انحنت فوق سيارة.

كل يوم تزداد جمالاً ويزداد توترًا من ملاطفات الرجال لها. بدأ يسب لها الدين على أهون سبب، وهي تبكي وتشكوه لأول ساكن يمر بها، بعضهم يتحفظ على التدخل، والبعض ينصحه بلين، لكن سعيد الطناحي، أمين صندوق العمارة الذي يُسمي نفسه العُمدة، يستمع إليها بانتباه ويوبخه أمامها، مرة بدعابة، ومرة بحزم، ومرات بتلميحٍ متشهٍ:

ـ أنت لا تعرف قيمتها يا حمار.

بعد انصراف العُمدة يشتمها سالم، وفي الليل ينام معها بغيظ، وهي تحبل بسهولة، ولا يبدو لها بطن طوال أشهر الحمل وتواصل نشاطها دون وهن حتى تلد. يفكر أحيانًا بإعادتها إلى القرية، لتعيش هناك مع الأطفال، ويذهب إليهم في إجازات، لكن العبيط من يترك شابة بعيدة عنه بعد أن عرفت هذا الشيء، كما أن ما سيكسبه وحده هنا ستنفقه هي هناك، بينما وجودها ووجود الأولاد معه يضاعف الدخل دون إنفاق يُذكر. أولاده صاروا أولاد العمارة، الجميع مسئول عنهم، يدللونهم في الطالعة والنازلة، ويعطونهم بسخاء، وعندما يدخلون المدارس سيساعدون في تعليمهم.

صاروا أربعة أطفال، أربعة أقمار، في النظرة الأولى لا يبدو أنهم يشبهونه أو يشبهونها، لكن بالتدقيق تبدو فيهم ملامح طعمة التي صارت جميلة جدًا. يرتدون أفخم الملابس التي ضاقت على الأبناء والأحفاد بالإضافة إلى هدايا من الملابس والأحذية الرياضية الجديدة. المشكلة الوحيدة أن هذا

العدد من الأطفال في مساحة عشرة أمتار ليس طبيعيًا. صار ضجيجهم مزعجًا، وضغطت كل ساكنة على زوجها ليتكلم، وأمسى موضوع خصوبة طِعمة وما يتعلق به من إزعاج على رأس جدول أعمال اتحاد الملاك. لكن الاجتماعات كانت تنتهي بالاتفاق على توجيه إنذار إلى سالم: لا أطفال بعد اليوم.

وقبل أن ينصرف كل منهم إلى شقته يهمس البعض للبعض عن حال البعض الثالث الذي يطالب بطرد البواب لأنهم يحسدونه على زوجته.

ويُسرِّب العُمدة تفاصيل الجلسة لطِعمة؛ وهي بدورها تنقل ما قيل لسالم، وهما ابنا العمارة ومن حقهما أن يُكشِّرا في وجه من قسى عليهما في الاجتماع أو يخاصمانه حتى، وأن يحفظا جميل العُمدة، الذي لا يطيق البقاء في شقته مع زوجته المريضة. ينادي طِعمة، بسبب وبدون سبب، يلوك الكلمة ببطء وكأنه يتذوق طعامة المرأة لا الاسم، وهي لا تتوانى عن مجاراته في الكلام، وأصبحت تعرف كيف تُليِّن صوتها الذي غادر ارتباك المراهقة وأمسى أنثويًا فاترًا. سالم منتبه لهذا الرجل بالذات، وبدأ يستبقها في الرد عليه:

ـ نعم يا عُمدة؟

ـ ناديت طِعمة، أنت طعمة؟!

يرد الرجل بخشونة، ويتجاوزه ليدخل إليها في الغرفة المفصولة عن المدخل بستارة، وسالم لا يجد ما يقوله، فيتبعه، ويكون الشاي في يد طِعمة التي تحلف على العُمدة أن تعمل له كوبًا. والعمدة يقبل الدعوة ويجلس على طرف السرير، ويبدأ في مزاح ثقيل معهما حول الأشياءَ السرية.

ـ هل يدللك هذا الجحش؟

ـ يدللني كيف بعد الشتيمة والبهدلة طول اليوم يا عمدة؟

وسالم يرفع صوته عليها ويسبها بأمها كنوع من الإهانة المستترة للطناحي الذي يتفهم عصبيته، لكنه يتجاهله، ويترك عينيه تتسللان داخل طوق جلباب طِعمة؛ ينظر إلى نهدين صلبين مدببين مثل ثمرتي خوخ سُكري، ويزفر:

ـ آه يا جحش!

وبعد أن يُثني على شايها يطلب منها أن تمر بعد الظهر على الشقة لتنظم المطبخ، وترى إن كانت الحاجة سِمحة تحتاج شيئًا، وسالم لا يستطيع أن يرفض مساعدة زوجته لسيدة طيبة مريضة، لكنه يشك أن السيدة يمكن أن تفيق لتراقب. وطِعمة عنيدة، ستصعد، حتى لو أراد أن يمنعها، ولا تبالي إن

كسَّر رأسها بعد أن تهبط. ستبكي وتحلف، وإن أعطاها ظهره في الليل؛ فهي تعرف كيف تسحبه، ولا ينتبه حتى يجد نفسه فوقها.

# 3

يعود مرارًا للتفكير برميها في بيت البلد. لكن لن يضمن سيرها هناك، وغير متأكد إن كانت ستنسجم مع أمه التي لم يعد يبرئها من التسبب في طلاق فوزية، وقد شرع بدأ في بناء الطابق الثاني، ويحتاج إلي كل مليم يكسبانه، وهي تضع قرشها على قرشه، باستثناء ما ترسله إلى أمها، وهو رزق من عند الله، يمنحه البهوات باسم الأم نفسها، ويشرطون عليها:

ـ هذا لأمك يا طِعمة وهذا لكم.

تصله هِبات باسم أمه كذلك، والفضل لطِعمة في الحقيقة؛ فهي التي حكت للبهوات عن حماتها، ولم يكنِ سالم يحكي عن أهله إلا الضروري جدًا طوال السنوات التي قضاها في العمارة قبلها. وهي التي كلّمت سليمان بيه عبدالرازق في الطابق السابع ووعد بمساعدتها في الحصول على واحدة من الشقق الجديدة المخصصة لنقل سكان منطقة عشوائية قريبة من حيهم الراقي، إذا تمكنت من الحصول على عقد إيجار في تلك المنطقة. وعفريتة استطاعت أن تحصل على عقد إيجار صوري بمساعدة قريبتها هناك، ونجحت في تغيير بيانات سكنها على تلك الشقة الخيالية، وسليمان بيه وعدها خيرًا.

شطارتها تجعل سالم فخورًا بها، لكن لحظة اقتحام سعيد الطناحي للغرفة تجعله شائطًا، وبصعوبة يتمالك نفسه كل مرة. ولم ينجح الوباء في إراحته من سحنته الثقيلة، فهو قليل الحذر من العدوى، لم يلزم شقته كالآخرين، ولا يرتدي كمامة، ويسخر من الوباء ويحاول إقناع من يصادفه بأنه مؤامرة.

ـ مجرد فيلم، انت فاهم؟

ورغم أن سالم أقرب إلى هذا الرأي ويجلس مع طِعمة سافرين، إلا أنه يفتعل الحذر عندما يراه، حتى نجح في منع المحاسب المتقاعد ذا الموخرة المترجرجة من الاقتراب من طعمة إلى حد ملامستها كما كان يفعل من قبل.

بعد شهر، شهرين، ثلاثة كشف الوباء عن وجهه القبيح. أحس سالم بأنه وأسرته صاروا مقصيين جدًا، وغرباء. لم يعودوا أبناء العمارة. كل حيّ يُفكر في نفسه كما في يوم الحشر.

ولم تعد النداءات تلاحق طعمة من فوق لشراء شيء أو أخذ طعام زائد في هذه الشقة أو تلك؛ فلم تعد هناك مفاجآت تجعل أحدهم يتناول غداءه في مطعم فتتوفر حصته في المنزل، وليست هناك مطاعم مفتوحة أصلاً لكي يطق في دماغ أحدهم اصطحاب أسرته للعشاء في الخارج بعد أن تكون زوجته قد أنفقت اليوم في طبخ يجد طريقه إلى سالم وأسرته. كل أسرة في عزلتها تعرف استهلاكها وتتصرف بحرص أقرب إلى البخل خوفًا من المجهول.

من المفترض أن يسعد بتباعدهم عن طِعمة، لكنهم تباعدوا كذلك عن الأطفال، يتعاملون معهم كمصدر محتمل للعدوى. أكثرهم تجنَّبهم تمامًا، والبعض يداعبهم بكلمة إشفاقًا دون أن يتذكَّر أسماءهم. والأطفال الذين اعتادوا إلقاء أنفسهم في أحضان الصاعدين والهابطين بدأوا يحسون غرابة المعاملة الجديدة؛ فانكمشوا على أنفسهم محتمين بالجدار مثل كتاكيت دخل عليها الظلام.

وأضحى سالم يتحين الفرص ليستمهل الصاعدين والهابطين مستخدمًا حِيَل طِعمة في فتح أبواب للكلام، ولا يجد إلا ردًا مقتضبًا بنبر جاف، مثل يد تدفعه بعيدًا.

يكاد يَحُث طِعمة على فتح باب للمزاح مع هذا الرجل أو ذاك، لكنها تجلس مقلوبة السِحنة دون رغبة في شيء.

كره سالم الوباء جدًا، وأصبح عصبيًا جدًا، ولم يعد يطيق النظر إلي امرأة ليس فيها من الطعامة إلا اسمها.

# ١٢ أبريل ٢٠٢٠

شيٌء في الروح، جعل صافي تنقض اتفاقها مع العزيز عمر.

عادت من نيو أورليانز التي عاشت فيها نصف قرن، وتركت وراءها شريك حياتها في مقبرة كان من المفترض أن تكون مرقدهما معًا.

بدأ حنينها إلى مدينة الغبار مثل حكة بسيطة عندما تضع رأسها على الوسادة، ولا تلبث أن تنام نومًا عاديًا، وفي الصباح تتناول إفطارها في شرفة غرفتها. تحت ناظريها بركة السباحة وأشجار حديقة منزلها الكبير؛ فتنسى حكة الليل.

كل أسبوع تستقل الترام إلى مقابر مياتيري. تُسلِّم على العزيز عمر، وتحكي له عن أشياء عادية مرَّت بها خلال الأسبوع، الأشياء التي تعرف أنها ستثير فضوله فحسب، ولم تأت على ذكر حكة الحنين إلى المدينة التي غادراها عروسين. مع الوقت بدأت الحكة تعاودها في لحظات مختلفة من اليوم، وبالتدريج صارت تؤلم، ثم انتهت إلى وسواس مستبد.

كانا قد تشاورا كثيرًا في أمر النومة النهائية، وفاضلا بين مقابر مدينة عمرهما؛ فاختارا مياتيري، لأنها الأقرب إلى منطقة المطاعم، حيث يوجد مطعمهما «شسمو» على النهر بين أكثر المطاعم أناقة في نيو أورليانز كلها، ويستطيعان أن يتطلعا إليه من مرقدهما وسط مجتمع راق من الموتى. كلفهما امتلاك القبر ثروة، وتدفع شهريًا للعناية به وكنس التراب وأوراق الشجر، وتحميمه مرتين في العام لتخليصه من سلح الطيور.

كان بوسعها أن تُرتِّب عقدًا للخدمة طويل الأمد، لكنها حسمت أمر العودة، وقررت أن تأخذ معها العزيز عمر، لتكون رقدتهما بين أمها وأبيها اللذين يستلقيان في وادي الموت التاريخي بصحراء الفرسان، بين عائلات كبيرة وعظماء فكر شغلوا الدنيا في غابر الزمان. قبر فخم، بل فيلا حقيقية، فيها كل ما يلزم لراحة العائلة عندما تذهب لزيارة موتاها. كان والدها يسميها «بيت العائلة» وكان فخورًا بأن نومته ستكون بين الكبار.

ليس للحنين من تفسير عقلي. لكن صافيناز الوقاد استطاعت أن تجد السبب العملي لعودتها، حيث تعتقد أن الموت هو الشيء الوحيد الذي تتفوق فيه مدينة الغُبار على نيو أورليانز. لا وجه للمقارنة بين الاستلقاء فوق بساط من الرمل الناعم الجاف في «بيت العائلة» وبين الاستلقاء على الماء تحت تهديد الغرق.

بسبب ارتفاع منسوب المياه الجوفية، تُبنى مقابر نيو أورليانز مرتفعة عن الأرض فتبدو مثل مدرعات برمائية، يوضع بداخلها التابوت مثل صندوق ينتظر الوصول إلى الشاطئ، لذا لا يستقبل

القبر ميتًا جديدًا قبل ثلاث سنوات من إيداع السابق، حيث تنتقل عظام الميت القديم إلى حقيبة توضع في ركن صغير، كي يتسع المكان للتابوت الجديد.

هناك دائمًا خطر نشع المياه الجوفية التي يمكن أن تملأ القبر فيطفو فوقها التابوت كزورق. أخفت مخاوفها من مقابر هذه المدينة عن العزيز عمر ورتبت معه كل شيء بكامل إرادتها، لكن المخاوف صارت وسواسًا منذ رحيله. في كل زيارة تدور حول القبر، تتفقد الجدار لتتأكد من أن العزيز عمر لا يعوم بالداخل.

بلغت صافيناز الوقَّاد الخامسة والثمانين، لكن قامتها الأقرب للقِصر أبقتها دون انحناء. ستعود، وترمم «بيت العائلة» وتزرع الزهور في ساحته، قبل أن تحظى بضمَّة الأرض، وتمتزج بأصلها في سلام.

ـ لا تخف. لن أتركك وحيدًا في الغربة.

قالت لتُطمئن العزيز عمر، بعد أن أفضت إليه بقرارها. وأحست أنها استراحت. لكنها قررت ـ بالتفكير العلمي الذي تتقنه ـ أن تتركة حتى تُجهِّز بيت العائلة لاستقباله، ثم تعود لتصطحبه مُعزَّزًا مُكرَّمًا.

رتَّبت أولوياتها بدقة. حدَّثت بياناتها في البنك وشركة التأمين، وجعلت عنوان المراسلة على مدينة الغبار. أبلغت مكتبًا عقاريًا برغبتها في بيع المنزل، ثم علَّقت على سياج الحديقة إعلانًا عرضت فيه الكلب والقطط الثلاث للتبني، حيث لن تتسع لها شقة هي آخر ما تبقى لها من والدها صادق الوقَّاد.

وشرعت مع مساعدتها في حزم الصور والمتعلقات العزيزة على قلبها، ورتبتها في حقائب بينما غلَّفت اللوحة التي رسمها لها حبيبها الأول بطبقات من بلاستيك الفقاعات الحامي والأسفنج لتصعد بها على الطائرة.

جاءتها أسرة اشترت الفيلا، ولم تضطرها للانتقال إلى فندق لحين موعد سفرها. ووافق المشترون على الاحتفاظ بالكلب والقطط الثلاث، وهذا ما جعلها تشعر بالارتياح.

ـ لا يجب أن يخسرونني والبيت في الآن ذاته.

قالت، إذ تذكَّرت كيف شارف الكلب على الموت حزنًا على العزيز عمر.

# 2

كلما اقترب موعد السفر ازداد اصطخاب القلق في قلب السيدة العجوز، والحسم الذي تمتعت به في البداية خالطه الشك، إذ بدأت ذكرياتها في نيو أورليانز تؤنِّبها على قرارها بعنف، علاوة على لوم الأصدقاء، ورهبة الخروج من حياة منظمة بدقة اعتادتها في كل شيء.

في بداية هجرتها مع العزيز عُمر انقطعا عشرين عامًا عن مدينة الغبار، حتى أنها لم تحضر وفاة أبيها، كانت حياتهما صعبة جدًا. عملت جليسة أطفال ونادلة واشتغل عمر حارسًا وسائقًا ثم طبَّاخًا. تنقلا في ولايات عديدة حتى وصلا إلى لويزيانا. وقعا في غرام الولاية المشدودة إلى ماضيها الفرنسي، وطاب لهما العيش في مكان يحنُّ إلى مكان آخر. وأحبا بالأكثر نيو أورليانز، كبرى مدن الولاية التي تحتضن أرقى المطاعم، بعد أن تحول الطبخ من مهنة للعزيز عمر إلى هوى امتلك قلبه.

تخاطفته مطاعم المدينة التي تتسابق على ترصيع واجهاتها بنجوم ميشلان، ثم افتتح مطعمًا صغيرًا، اختارا له معًا اسم «شسمو» بدأت تعاونه في إدارته، تولت صافي الحسابات، بينما واصل العزيز عمر ابتكاراته في المطبخ. أخذ يتوسع دون أن يبرح مكانه على شاطئ المسيسبي، فحاز النجوم الثلاث، وتخرَّج فيه نجوم في الطبخ بينهم إيميريل لاجاسي الذي حاول عمر أن يكافح فيه جنوحه إلى الشعوذة. كان يشْدُد عليه: .«من حق الزبون أن يجد في الطبق شيئًا جادًا بجوار المزاح»

قبل أن يبلغ العزيز عمر الستين بدأت ذاكرته تتحدر على مدى سنوات طويلة، وكان من المستحيل أن تتابع كل التفاصيل في مطعم يستقبل يوميًا نحو خمسمائة زبون؛ فاقترحت البيع، قبل أن تتسع هوَّةُ البياض التي ابتلعت كل ماضيه، ثم لبى النداء.

لم يُفكرا في العودة إلى مدينة الغبار عندما كانا يقرران معًا، ولا هي فكَّرت في ذلك عندما بدأت القيادة وحدها، إلا أنهما كانا قد بدآ زيارات إلى مسقط رأسيهما كل عدة سنوات. وكانت ترسل بشيك سنوي إلى العزيز رامي ليدفع حصة شقتها في خدمات العمارة.

رحلتها السابقة، كانت منذ ثلاث سنوات، كانت السَفرة الأولى دون العزيز عمر. رافقتها نانسي دنبار، مساعدتها التي لم تعد تستغني عنها، أقامتا في فندق يُطلّ على النهر، وساعدتها نانسي كثيرًا في الإشراف على عمل الصيانة الضرورية للشقة وإعادة طلائها. التكاليف رخيصة، لكن التعب هدَّها كأنها تقوم بالعمل بنفسها، والكثير مما دفعته بلا مبرر جعل التكاليف أغلى من أسعار نيو أورليانز. البواب سمسار، السبَّاك الذي يدلها على صديقه الكهربائي سمسار، والعمدة سمسار!

ولولا موافقة العزيزة نانسي على مصاحبتها مجددًا ربما كانت ستتردد في العودة النهائية.

لم يبق من سكان العمارة القدامى سوى العزيز رامي حنا. هاجرتْ صافي عندما كان صبيًا في العاشرة. كان يحبها وبكى عندما رأى العزيز عمر للمرة الأولى في بيتها؛ فأخذته في حضنها وقبَّلت وجنتيه. كانت والدته السيدة ليليان تنزل لتشرب شاي العصر مع والدتها في الشرفة، تستمعان إلى مطرب الأجيال، بينما يدخل رامي إلى صافي، يسألها عما تقرأ، تحكي له ثم تطوي الكتاب وتقوم لتلعب معه. الشرفتان الباقيتان على حالهما في العمارة الآن هما شرفتا شقتيهما. الآخرون غطوا شرفاتهم بواجهات من الزجاج والألمونيوم متباين الألوان يشوه جمال العمارة القديم.

لم تعش في هذه الشقة غير عشر سنوات قبل الهجرة، لكنها كانت سنوات وعيها، وأرادت أن تستعيدها بأقل تغيير ممكن. استغنت عن السجاد الذي لا سبيل إلى إصلاحه، والمراتب القطنية التي تشربت التراب، وكل المفارش، والكثير من أدوات المطبخ. ووجهت أكبر عنايتها لإعادة الحياة إلى مكتب أبيها ذي الطراز الإنجليزي الرصين، استدعت أفضل شركة متخصصة في الأثاث الكلاسيكي أعادت تلميع الأخشاب، وعالجت الجلد الطبيعي على سطح الطاولة وجلد مقعده وطقم الجلوس الفاخر في الغرفة.

نظَّفت إطارات صور أبيها في شبابه، التي تعود إلى قبل منتصف القرن العشرين، وكثير منها لأسفاره، ولقاءاته مع أصدقائه من كبار الأدباء العالميين؛ صورة مع الهندي طاغور في كلكتا قبل أشهر قليلة من وفاته، مع الإنجليزي سومرست موم بعد أن استقر به الترحال في مزرعته بولاية كارولينا الأمريكية، مع همنجواي وزوجته الثالثة مارتا جيلهورن في بكين عندما كان مراسلاً معهما في تغطية الحرب الروسية الصينية، أما صوره مع الملك، فتنتشر في كل مكان بالشقة. التُقطت لهما في مختلف المناسبات؛ سهرات في نادي السيارات، على اليخت الملكي، في استراحة المزرعة الملكية بالضاحية، وكانت صافيناز ترى الملك في شقتهم عندما كانت طفلة. ليس في هذه الشقة، بل في الأخرى التي كانت بالجزيرة وتطل على النهر مباشرة، اضطر أبوها إلى بيعها فيما بعد.

أحيانًا كان يُبلغ أمها بأنه سيخرج للسهر مع الملك، وإذا بالرجل السمين يطرق بابهم قبل موعد السهرة.

ـ قلتُ أمرُّ، لآخذك وأوفر عليك عناء القيادة.

يقول لأبيها، ثم يسأل أمها:

ـ منيرة هانم، ماذا عندك لآكله؟

قبل أن تجيبه يكون قد صار في المطبخ، فتح الثلاجة، وبدأ في اكتشاف الأشياء بنفسه، يأكل مما يجده؛ محشي، لحمًا باردًا، أو يقرش خيارة. ولا تُصدِّق صافيناز أن هذا الرجل حاسر الرأس الذي يرتدي تيشيرتًا وشورتًا ينتهي عند ركبتيه يمكن أن يكون هو ذاته الملك الذي تراه في الصور معتمرًا طربوشه، ويرتدي بدلة عسكرية مرصعة بأثقال من النياشين، والأوشحة.

عرفت فيما بعد أن والديها سمياها على الاسم الأصلي لزوجته قبل أن تحصل على اسمها الملكي، حيث ولدت صافي في الصيف الذي قابل فيه الملك رسَّامة أرستقراطية من رعاياه في سويسرا وفتنته.

وعندما حاصرت الدبابات الملك واضطرته لمغادرة مدينة الغبار أرسل إلى والدها يستحثه للالتحاق به. ورغم أن صادق الوقَّاد كان يعشق السفر رفض دعوة صديقه بأدب.

ـ لم يعد في العمر بقية.

قال لناقل الرسالة. كانت الأمراض قد بدأت تتكالب عليه، وبدأ يستشعر النهاية، ولم ترقه فكرة الموت بعيدًا عن مدينة التراب. لكن منيرة هانم التي لم تكن تعاني أي مرض سبقته بخمس سنوات. وبدأت عزلته تتعاظم. كان الناس يخشون ذكر اسمه، حتى أنه كان ممتنًا لشجاعة الشاب عمر السنديوني عندما تقدم لخطبة ابنته، ولم يشترط عليه شيئًا إلا أن يهاجر بعروسه. توسلت إليه صافي:

ـ بابي، كيف سنتركك وحدك؟ كل هذا سيتغير.

ـ لن يتغير أبدًا، لا تحلمي.

# 3

لم يكن بينها وبين العزيز عمر سابق معرفة. قصة حبها الحقيقية كانت مع □ان كوبليان بواب عمارتهم في الجزيرة التي كان بابها يفتح على النهر. شاب أرميني، وسيم كالمسيح في أجمل اللوحات، وكان رسَّامًا موهوبًا، اتخذ من مدينة الغبار محطة لجمع بعض الأموال قبل أن يستكمل رحلته إلى روما لدراسة الفن. عمل بوابًا لأنها المهنة التي توفر سكنًا، ولم يكن سكن البواب بئر السلم كما هو اليوم، بل ستوديو الطابق الأول.

كان في الخامسة والعشرين وكانت في الخامسة عشرة، وقعت في غرامه، لكنه أنجز ما كان يأمله وسافر، وظل يكتب إليها سنوات، بحنين جارف في البداية، ومع الوقت بدأت خطاباته تتباطأ وتبرد، إلى أن انقطعت تمامًا.

كانت قد بلغت الثالثة والعشرين عندما خطبها عمر السنديوني. تُدرك بعقلها أن الحب يمكن أن يطرق بابها مجددًا، لكنها أدركت كذلك أن تمييز طَرقاته الجديدة يحتاج إلى ذكاء في القلب لم تعد تملكه؛ فوافقت على الزواج دون انتظار، بعد حماس والدها عندما لاقى شرط الهجرة الذي وضعه استحسانًا من عمر.

بعد ستة أشهر في الولايات المتحدة مع العزيز عمر نشرت صحيفة كبرى خبر رحيل الكاتب صادق الوقَّاد.

نعي من أربعة أسطر في صفحة الوفيات. لم تقرأه إلا بعد نحو ثلاثة أشهر، هي المدة التي استغرقتها رحلة نسخة الجريدة إلى أمريكا وانتقالها من يد إلى أخرى بين المهاجرين المتعطشين لقراءة أي شيء عن بلدهم. وصل النعي عندما لم تعد هناك جدوى للعودة، وعرفت فيما بعد أن أصدقاء والدها دفعوا ثمنه وتعرَّض لمقص الرقيب.

ها هي بالقرب من أبيها أخيرًا. غرفة مكتبه صارت مكانها المُفضَّل، تقضي فيها معظم الوقت. تقرأ كتبه، مقالاته الكثيرة جدًا في مجلات مُجمَّعة في مجلدات، يضم الواحد منها أعداد ثلاث سنوات.

بدأت التفكير في إعادة نشر هذا التراث. دون أن تعرف كيف.

ـ لن يكون صعبًا التوصل إلى دار نشر مناسبة.

أجابها رامي، عندما أبدت رغبتها أمامه، وبعد أيام حمل إليها طبعة جديدة من رواية أبيها «عطلة إبليس».

ـ وجدتها أمامي عند بائع الصحف.

كان سعيدًا، بهذه المصادفة، لكنها انتفضت:

ـ هذه سرقة! لا يمكن أن يحدث شيء كهذا في الولايات المتحدة. حتى النكتة يحترمون حق مؤلفها.

ولم يكن شططًا ما قالته؛ فقد عرفت وودي آلان صانع الأفلام والممثل الشهير، كان من رواد «شسمو» وعزف فيه الترومبيت في أكثر من أمسية، ثم صار صديقًا، قال لهما ذات أمسية إنه باع ستة عشر ألف نكتة لكُتَّاب الكوميديا، قبل أن يقدم فيلمه الأول، وكان يوثق ملكيته لها قبل بيعها.

كلَّفت محاميًا أقام دعوى قضائية ضد جهة النشر. تلقَّت على إثرها مكالمة من المشرف على إصدار الكتاب. حاول أن يشرح لها أن الناشر جهة غير ربحية، وأنه وحده المسئول عن هذا النشر، لأنه محب لوالدها الذي يعده أستاذ أساتذته، وأنه لم يكن يعرف كيف يتواصل معها في المهجر، وافترض أنها عندما تأتي ستتقاضى ما يتقاضاه المؤلف عادة. لكنها لم تتزحزح:

ـ هذه سرقة، واستهانة بعصارة العقول.

ـ وكيف أصلح هذا الأمر؟

ـ المحكمة هي التي ستفصل بيننا.

ـ هل قرأت تقديمي للكتاب؟

ـ قرأت، ولا أفهم كيف تمتدح من تسميه أستاذك، وأنت تستهين بحقوقه.

ـ سيدتي، من واقع البيان أمامي الكتاب لم يوزع سوى مئة وخمس وستين نسخة، حقك فيها محفوظ.

ـ إلامَ تُلمِّح؟ إن لم يوزع، فهذا فشلكم أنتم.

وجاءها صوت الرجل حزينًا فارغ الصبر:

ـ سيدتي، لا أحد في الأجيال الجديدة يتذكر والدك، ولا أحد في المنظومة يُحبه، وقد تصورت أنني أستحق الشكر على مخاطرتي.

ـ لا يهمني كل هذا.

ـ صافيناز هانم، أعلى ما في خيلك اركبيه.

قال الرجل غاضبًا وأغلق الخط. أحست أنها تلقت صفعة أيقظتها.

ـ هل تعنت معه؟

وكادت تتفهم موقف الرجل الذي كتب مالم يُكتب عن أبيها منذ سبعة عقود، لكنها بشكل غير واع، لم تكن ترد عليه، بل على المنظومة؛ تنتقم في شخصه من سنوات الانكسار والوحدة التي عاشها والدها. كان الناس يتركون الرصيف الذي يمشي عليه، لأنهم يخشون أن يصافحوه ويستحون ألا يصافحوه.

في ذلك الوقت كانت صافي كبيرة بما يكفي لتعي كل ما حدث. ولم تفقد ذاكرتها بعد. أخذت تستعيد مشاهد محددة مثل لقطات تتوالى على شاشة عرض؛ فازدادت تمسكًا بالانتقام، ورفضت كل الوساطات الممكنة، ووضعت الأمر بين يدي محام شهير.

وصارت واقعة الاعتداء على حقوق التأليف سببًا في زيادة إصرارها على إحياء أبيها بكل السبل، ومن بينها التعجيل بإجراءات ترميم «بيت العائلة».

ـ آه! كيف نسيتُ عادل السنديوني؟!

- Oh yes Adel!

تعرف نانسي المعماري العالمي عادل السنديوني جيدًا، ابن شقيق عمر، الذي كان يتردد على عمه في زياراته إلى أمريكا. وقد اعتادت طوال ربع قرن أن تجد نفسها وسط فكرة برأس صافي، ونادرًا ما تخذلها. وقد فطنت هذه المرة أيضًا لما يشغل صافي.

تحمس عادل جدًا للإشراف على المشروع. وطلب منها أن تزوره في مكتبه. أطلعها على فيلم لمخطط تطوير مدينة الموتى حصل به على جائزة عالمية، وتعهد بالتكاليف من مؤسسة عالمية لحماية التراث. رأت حديقة تتناثر القباب بين أشجارها. والممرات الترابية الفسيحة، صارت مرصوفة بالزلط الملون، تحفها صفوف النخيل، والورود، ومساحات من العشب ومقاعد حجرية للاستراحة بين مسافة وأخرى. شهقت إعجابًا:

ـ ستكون شيئًا مهيبًا أجمل من مقابر أرلنجتون في واشنطن.

ـ وأعظم من مونمارتر باريس. بانثيون حقيقي يا صافي، يليق بعظمائنا.

ـ متى يبدأ التنفيذ؟

ـ عندما نحصل على الترخيص، أتعشم أن يكون قريبًا.

كان يتكلم بحماسة، وكأنه سيعيد الموتى إلى الحياة، فحدَّثته عن نواياها لمقبرة أسرتها:

ـ ليكن بيت عائلتنا بداية مشروعك.

عادت من اللقاء سعيدة. ولم يتأخر عادل. كلَّف مساعديه بالتواصل معها، وخلال أسبوعين أطلعوها على الماكيت. وبدأ التنفيذ.

إن مرَّ يوم لم تذهب فيه إلى بيت العائلة، يرسل إليها مهندس الموقع صور ما تم إنجازه. وسار كل شيء على وجه أحسن مما كان بخيالها. ترميم وإعادة طلاء، وجلب طمي أسود لتحسين تربة الفناء، وشراء شتلات. وسرعان ما صار الورد مبتهجًا في أحواضه بالواقع كما بدا في الماكيت، بينما ستحتاج غرسات الجهنمية الملونة بالقرب من الجدران، وغرسة بونسيانا، على رأس غرفة الدفن إلى ثلاث سنوات لتصبح في الحجم الذي تظهر عليه في الرسم. هكذا أخبرها البستاني الذي أشرف على الزرع.

# 4

أحست بالغبطة لتزامن إعادة المقبرة إلى شبابها مع صدور حكم من محكمة الدرجة الأولى بالحبس شهرًا على مسئول النشر، وتعويض مؤقت لصالح صافي. أدار محاميها بكفاءة قضية يتعاطف فيها مع الخصم. وبعد أن استشعر ارتياحها للحكم، همس إليها بعرض للتصالح تقدم به محامي الطرف الثاني.

ـ لابد أن نفكِّر بشأن نوايا الناشر الطيبة.

ـ أفهم من هذا أن أبحث عن محام آخر لإكمال القضية؟

ـ لا ياهانم، كما تريدين، سنستأنف الحكم.

بعد جلستين لمحكمة الدرجة الثانية، اجتاح الوباء المدينة وأُغلقت المحاكم. وصار عليها الانتظار، لكنها كانت سعيدة. جلسات شاي العصر بين السيدتين منيرة وليليان أحيتها صافي مع رامي. تصعد إليه مع نانسي أو ينزل إليها بصحبة غيداء. وبين يوم وآخر تستدعي سيارة تحملها مع نانسي إلى بيت العائلة، تقضي ساعتين قبل الغروب في صحبة والديها، حتى تعلقت بهما تعلقها بزوجها.

ذات عشية، بينما تغادران المقبرة، بادرتها نانسي:

ـ عندما ينتهي حظر الطيران، نذهب لإحضار العزيز عمر.

ـ أتمنى هذا يا عزيزتي.

أصيبت غيداء بالكورونا، جاءتها ثقيلة معربدة، طرحتها في غرفة عناية مركزة بين الحياة والموت، وبعد يومين أحست صافيناز باحتقان في الحلق وثقل في الصدر، وسرعان ما ارتفعت حرارتها، وبدأت تحس صعوبة بالغة في التنفس. استنجدت نانسي برامي، وتمكن من إيجاد غرفة عناية لصافي. أخذ يطل عليها مرتين في اليوم من وراء الزجاج، حيث يمضي نهاره بالمستشفى قريبًا من غيداء.

أفلت رامي ونانسي من التقاط العدوى. وفي أيام العزل المشدد لم تعرف نانسي شيئًا عن الصديقتين سوى ما ينقله إليها رامي. بدأت علامات التحسن على غيداء وانتقلت إلى غرفة عادية بعد أسبوعين، بينما ساءت أحوال صافي وظلت بالعناية لمدة أطول. فكرت نانسي فيما يمكن أن

يحدث، وكيف ستتصرف، لكن القطة العجوز لديها تسعة أرواح لم تستهلكها كلها بعد. بدأت بالتحسن، واستردت تليفونها، وصارت نانسي تهاتفها؛ فتسألها كل مرة:

ـ هل زرت بيت العائلة؟

ـ نعم، صافي.

ـ في المرة القادمة صوري لي لأرى كيف صار الشجر.

بعد يومين أرسلت إليها نانسي بعدد من الصور. تأملتها وردَّت عليها:

ـ كأنه لا ينمو يا عزيزتي؟!

أخذت نانسي تشاغلها بتفاصيل أخرى. اتصالات عادل السنديوني والمحامي للاطمئنان عليها، حكايات عن طِعمة التي تصعد إليها لتسألها إن كانت تريد مساعدة، بينما تجرُّ وراءها أربعة أطفال!

طال عزلها، وبعد تحليلين جاء الثالث سلبيًا. لم يعد للفيروس وجود في دمها، ولم تتضرر كما تضررت غيداء، لكنها ظلت واهنة، بحاجة إلى الملاحظة والمحاليل لمدة طويلة، وأصبح بوسع العزيزة نانسي أن تزورها بأمان؛ فبدأت تلاحقها بالأسئلة.

تعرف نانسي أنها لا يمكن أن تفلت بكذبة إذا نظرت صافي في عينيها، فتخرج لها التليفون وتُغرقها في فيض الصور التي تسجل كل أيام العمل في بيت العائلة التي سبق أن رأتها.

عادت إلى الشقة بعد سبعين يومًا، كانت المفاجأة بانتظارها. وجدت اثنتين من المخالي القماشية التي تحبها نانسي على مكتب الوالد. بحرج لم تتوقع أن يكون بينهما يومًا وقفت نانسي في مقابلها، وبدأت تحكي لها عن الاتصال الذي تلقته من أحدهم ذات يوم قبل أن تستيقظ الطيور:

ـ سنهدم المقبرة اليوم، تعالوا إذا كنتم تريدون الأشياء.

لم تستوعب نانسي الاتصال، ولم تعرف ما الذي يحدث، وأية أشياء يجب أن تأخذ، وكيف تتصرف؟ اتصلت بالمهندس عادل السنديوني، أوضح لها أن طريقًا سريعًا سيُشق عبر المقابر، وأن عمليات الهدم تجري بالفعل.

ذهب معها، وجمع بنفسه العظام من غرفتي دفن الأب والأم، ووضع ما وجده من كل منهما في مخلاة من مخالي نانسي الكتانية. وضعتهما على مكتب الوالد، وانتظرت تعافي صافي وعودتها إلى الشقة لكي تُطلعها على الأمر.

ـ كان مستحيلاً أن أبلغك وأنت بين الحياة والموت.

قالت نانسي، ردًا على نظرة العتاب الحزينة من صافي. بعد لحظات تردد، وسَّعت صافي فوهة إحدى المخلاتين، رأت جمجمة بعظمتي الوجنتين البارزتين المميزتين لوالدها، مع أربع قصبات سليمة من المؤكد أنها عظام الساقين، وبعض الكسرات تبدو من عظام الأذرع. فتحت المخلاة الأخرى، فلم تر سوى عظمتي فخذين وشقفة من الجمجمة بحجم قبضة يد، و حفنة من فتات رقيق كفتات القواقع المسحوقة على الشواطئ.

تهاوت على الكرسي، ثم صالبت ذراعيها على المكتب وأخفت رأسها بينهما.

بعد دقائق رفعت رأسها وفتحت مخلاة أمها. أخرجت شقفة الجمجمة، ووضعتها على السمَّانة الجلدية أمامها.

ـ هذا كل ما تبقى يا منيرة هانم!

السفيرة عزيزة، كانوا يسمون أمها لرقة ملامحها وأناقتها العملية. دققت في فيما تبقى ورأت الصبر العطوف للمرأة التي تفهمت رجلاً قلقًا كثير النزوات. أخرجت جمجمة أباها ووضعتها بجوار الأخرى، وأخذت تحدق بالمحجرين الخاليين من عينين صغيرتين كانتا متألقتين سعادة وذكاءً، استعادت الغمَّازتين اللتين كانتا مصدر جاذبية صادق الوقَّاد لدى النساء ومصدر قلق أمها وغيرة الملك. استعادت وجه الرجل الأربعيني، بشعره الأسود الذي تتخلله فتحتان في المقدمة تمنحان شعر الجبهة مظهر عُرف الهدهد. لكن الحقيقة أثقل من أن تصمد معها صورة. الرأس الجميل اللامع صار كهفًا.

رفعت رأسها وسلَّطت عينين خاليتين على مساعدتها التي لم تزل واقفة في مواجهتها. همست نانسي مواسية:

ـ العزيز عادل، يعرض دفنهما في مقبرة عائلته.

ـ لا يا عزيزتي، سنأخذهما ونعود إلى العزيز عمر، عندما يستأنف الطيران رحلاته.

# ٢٧ نوفمبر ٢٠٢٠

«أثقل شيء على الملك رعيته، لكنه لا يكون ملكًا بدونها» فكَّر ثابت سند بينما ينظر إلى فراغ لا يوحي إلا بالموت. الهواء شفَّاف كما كان قبل خلق المدن، والشمس حنون. وهو يحب الخريف، لكن ليس هذا الخريف المُفزَّع بالوباء.

يحرص رئيس الهيئة على الوقوف كل نصف ساعة، يُمَشي رجليه إلى النافذة، أو يعبر مكتب سكرتاريته ليقف أمام هذه الواجهة البيضاوية لقاعة الاجتماعات، التي تكشف الفراغ الفسيح أمام البوابة بشكل أفضل، حيث يجلس الآن على رأس الطاولة، مستديرًا بكرسيه إلى الواجهة، سابحًا في تأملاته الحزينة حتى أنه لا يشعر بدخول وخروج مدير مكتبه المنهمك في التحضير للاجتماع.

تمنحه هذه الإطلالة اطمئنان المعرفة؛ إذ لا يمكنه الوثوق بالملفات الصمَّاء. عندما يلاحظ شيئًا غريبا في سِحنة أحد المغادرين أو الداخلين، يهرع إلى صور كاميرات المدخل، يُكبِّر الملامح، ليرى ما قد يبدو على الوجه من المشاعر الهدامة: ابتسامة سخرية، نظرة يأس، أو تكشيرة غضب. يستدعي ملف الموظف على الشاشة أمامه، يُجري تقديرًا سريعًا، قبل أن يستدعي الرئيس المباشر لذلك الموظف ويستجوبه بشأن الحالة، ولماذا لم ينتبه إليها في بدايتها. وقبل أن يجيبه المسئول يكون قد اختار الطريقة الأنسب للتصرف.

يتفهم أن يكون لكل إنسان أسبابه للحزن، للعدوانية، للغضب، أو حتى للقرف من وضع ما أو احتقار شخص ما. يتفهم كل ذلك عندما يكون دون المستويات الخطرة، لكن تظل المراقبة ضرورة حياة للهيئة والمنظومة ككل، لأن المشاعر الخطيرة المخبأة في النفوس، تكبر وتتوالد بأسرع من تكاثر كوفيد١٩. نظرة السخرية أو اليأس الواحدة تنتج نصف مليون جسيم من فيروسات الكآبة والعدمية تسبح في هواء البرج.

أحيانًا ما يلمح شيئًا في يد عامل أو نتوءًا واضحًا تحت ملابسه، يهاتف مدير أمن الهيئة الذي يرسل بدوره اثنين من مرؤوسيه وراء المُشتبه به، يضبطانه قبل أن يستريح على مقهى قريب أو يقفز في أتوبيس. وأول ما يفعله مدير الأمن بعد تحققه من الواقعة، هو الصعود إلى مكتب ثابت باشا، والانحناء أمامه ممتدحًا قدرته على رؤية دفتر صغير تحت إبط رجل أو حزمة من الأقلام صنعت نتوءًا تحت معطف شتوي لامرأة، رغم أن الإنسان يبدو من هذا الارتفاع بحجم عقلة إصبع. وعندما يبتسم الرئيس في حبور، يستعيد الثعلب انتصاب قامته بحركة مسرحية، ويمضي بخطوة رياضية نحو النافذة، ليتأكد إن كان البشر يبدون بحجم عُقَل الأصابع فعلاً كما تفوه حالاً أم أكبر؛ فهو لا يريد أن يفقد مصداقيته عند الرجل الذي يحب الدقة. يستدير مرة أخرى نحو الرئيس، ويعاود الانحناء دون أن يضيف شيئًا، والرئيس المنتشي يبتسم في خيلاء.

يكفي كشف سرقة وحيدة صغيرة بين وقت وآخر لكي يعرف الجميع أن ثابت سند مهيمن على كل شيء في الهيئة، لكنه لا يكف عن المراقبة من أجل المتعة. يرى الانتشار الفوضوي للقادمين، وقد أخذ يضيق ويتكثف، ثم ينتظم في طابور يزحف إلى الداخل، بينما يخرج المغادرون عبر القطاع الثاني من البوابة طابورًا رفيعًا، يتسع تدريجيًا حتى يتشظى إلى فوضى تلتحم بفوضى الداخلين على بعد أمتار من البوابة، ويبدو البشر الصغار في ذلك الحشد مثل سرب بطارق يدور حول نفسه على الشاطئ قبل أن يتقافز إلى البحر.

اتخذ قرارًا منذ عدة أسابيع بتخفيض حضور الموظفين إلى النصف تماشيًا مع الإجراءات الاحترازية من الوباء. لكنهم أساءوا استغلال هذا التخفيف. بدأت ظاهرة الغياب بلا إذن تستشري وأخذت الأعداد تتناقص، حتى لم يعد يدخل المبنى سوى العشرات من أصل خمسة وثلاثين ألف موظف ونحو ألفي زائر ومراسل من الهيئات الأخرى.

أصبح محرومًا من متعة التنميل اللذيذ الذي يستشعره في مؤخرته الصغيرة عندما يتقدم بكرسيه ويتقهقر، متذكِّرًا أنه يسبح فوق خمسة وثلاثين طبقة من النمل الدؤوب، بين يدي كل منهم إضبارة ما أو مخاطبة ما. وهذا هو موت ثابت سند بمعنى من المعاني؛ لأن حياته الحقيقية الحقيقية هنا. ذكرياته كلها، وأحلامه لا تغادر هذا المكتب المهيمن على البرج ذي الستة والثلاثين طابقًا. لا أصدقاء له، ولا يسمع اسمه إلا هنا.

في العمارة التي يقيم فيها يشيرون إليه بضمير الجمع الغائب، يقولون: جاءوا، ذهبوا، للإشارة إليه مع حُراسه الثلاثة، الذين يستقلون معه المصعد، ولا يتركونه إلا على باب شقته. يتحاشى الجيران رؤيته باستثناء الطبيب فريد عبدالمحيط، الذي لجأ إليه ذات مرة في استشارة طبية عاجلة لزوجته. رجل طيب، لكنه صادم. يرى الإنسان شبكة صرف! تزاورا مرتين وانقطع عنه ثابت تمامًا، لأن قدرة ذلك الطبيب على الشم وضعته تحت وطأة الإحساس بأن أحشاءه مفتوحة أمامه.

الآن تلح عليه مقولة للطبيب لم يفهم معناها حينها «الحياة صراع بين قوى التلاحم وقوى التفسخ، والنتيجة محسومة من البداية» مقولة خطيرة، لكن ثاقبة. ها هي قوى التفسخ تتقدم في جسد الهيئة توشك أن تنتصر، لذا لم يعد يغادر مكتبه ليلاً أو نهارًا.

إلى جانب المكتب الفسيح وغرفة الاجتماعات يضم الطابق استراحة، يخدم فيها طبَّاخ وسفرجي وخادمتان وحلاق. الاستراحة مجهزة منذ إنشاء البرج لراحة رئيس الهيئة، يتناول غداءه ويأخذ قيلولة صغيرة فيها، ويمكن أن يُقيم بها.

وهو ليس أول رئيس للهيئة يصل الليل بالنهار في مكتبه. كثير من الرؤساء السابقين كانوا يبيتون، بعضهم لانهماك حقيقي في العمل، وبعضهم كانوا يتظاهرون بالانهماك، بينما ينحرفون بالاستراحة لاستخدامات أخرى. لكنه لا يفعل ذلك؛ فهو ليس ولوعًا إلى ذلك الحد بالنساء، ويُذكِّر نفسه دائمًا بأن جموع النمل تراه كما يراها.

هذه الجموع هي التي تدفع في حركتها الدائبة أحد أفرادها إلى القمة؛ وعليه ألا ينسى؛ أن حركة عشوائية مماثلة ستهبط به إلى القاع وترفع غيره.

# 2

خلال ربع ساعة من المراقبة الحزينة لم يعبر أحد الفضاء الفسيح أمام البوابة، فتعزز لديه الإحساس بالوجود الثقيل للموت، ولم يخرجه من استغراقه الحزين في المشهد سوى تقلقل مدير مكتبه ببداية كحة نجح في كبحها.

بدأ ثابت سند يُقلِّب في إضبارته، بينما يستشعر رائحة التفسخ في المخاطبات. تذكَّر ما قاله ذات يوم فريد عبدالمحيط عن صراع قوى التماسك وقوى التحلل. وجد نفسه يمسك الورقة بأنملين متأففين، كأنه يمسك بفأر ميت. ما هذا؟! لم يعد هناك فرق بين المذكرة الخارجية والداخلية، بين الكتاب والقرار الإداري بين الالتماس والشكوى. تآكلت ديباجة الاحترام، حتى في المراسلات الموجهه إليه شخصيًا. «برجاء تفضل معاليكم بالاطلاع» أصبحت «أرجو الاطلاع». نرفع إلى مقامكم السامي آيات الشُكر، صارت «مع جزيل الشكر». لم يعد تنسيق الطباعة ونوع الورق ولونه محل اعتبار. بعض المخاطبات تفتقد تواريخ تصديرها. هذا لا يختلف عن أي عمل تخريبي مُدبَّر.

أغلق إضبارته وجلس ساكنًا، ثم تطلع إلى ساعته، وفتح ملفه في مراجعة أخيرة قبل أن يحضر مديرو الإدارات.

في عُرف الإدارة لم يزل ثابت سند في شرخ الشباب، تجاوز الخمسين بعامين، وعندما تبوأ هذا المنصب من عشر سنوات، كان أصغر رئيس للهيئة في تاريخها، لكن لديه خبرة تفوق خبرات الكثير ممن وصلوا إلى المنصب ذاته بعد أن تحدَّبت ظهورهم.

بدأ من قمة البرج ولم يتزحزح. التحق بالمكتب ساعيًا في عهد آخر أعضاء السلالة القديمة من رؤساء الهيئة. كان رئيس الخدمة بالمكتب جار ثابت في البيت، جاء به تلميذًا صغيرًا. ووجد رئيس الهيئة فيه صبيًا ذكيًا حسن المظهر، فأمر بألا يدخل غيره بالمشروبات إلى الضيوف المهمين.

بعد أن التحق بالجامعة صار الرئيس يرسله بالهدايا الثمينة إلى الكبار الذين لا يريد أن يرسل إلى بيوتهم سعاة أميين رِثاث المنظر. بعضهم كان طيبًا جدًا، يأمر بإدخاله وإكرامه فيقبل ممتنًا، والبعض كان غليظًا يأمر حرَس البوابة بتسلم الأشياء وصرفه، وكان يمتثل شاكرًا ببشاشة وتهذيب.

من معاملة اللطفاء والأفظاظ له تعلَّم كيف تصنع السلطة توازنها. وكان هذا هو درسه الأول والكبير.

أصبح في عداد الموظفين بعد تخرجه في الجامعة، وبدأت مهامه تتزايد وتتزايد معها مكانته في مكتب رئيس الهيئة، مخالفًا ناموس الإدارة الذي يقضي بتغيير طاقم المكتب مع كل تغيير للقيادة، كان الرئيس الجديد يُغيِّر الآخرين ويُبقي على ثابت سند، الذي سيصبح الرئيس الوحيد في تاريخ

الهيئة الذي لم يتقلب على الإدارات المهمة كما تقتضي التقاليد، لكنه يعرف كل دبَّة نملة؛ لأن الإدارات كانت تصعد إليه بدلاً من أن ينزل إليها. يضع مديروها أمامه المعلومات التي تعزز مراكزهم، ويحمل إليه نوابهم المعلومات التي تعزز طموحهم، فيصبح مُطلعًا على وجه الإدارة وقفاها، وعلى أهون ضرطة مكتومة في أمعائها.

عندما صار رئيسًا كان متأكدًا أنه صار على قمة شبكة صرف ضخمة، يعرف أماكن الانسياب وأماكن الانسداد فيها. يعرف متى يستخدم آلات الشفط، ومتى يحتاج إلى غطاسين. والأهم أنه وقف على هوة المعرفة المخيفة التي لم يقف عليها غيره؛ فالهيئة، وأية هيئة، تستمد وجودها من استمرار نشاطها لا من طبيعة ذلك النشاط.

واليوم، عليه أن يغطس بنفسه، وأن يخرج من الاجتماع بدون أن تتبلل بدلته، اثنا عشر مديرًا لن يحضروا، لكن ثلاثة من الأربعة الذين سيحضرون يضمرون أكثر الطلبات حمقًا.

# 3

سمع أولى الخطوات في الممر؛ فأحكم كمامته، وأخفى رأسه في الإضبارة أمامه، مثل قاطع طريق يتخفى خلف شجرة ليفاجئ عابرًا ساهيًا.

ـ الديك الرومي.

همس لنفسه كتحصيل حاصل؛ فهو يُميِّز خطوات كل منهم دون أدنى خطأ.

رفع رأسه في اللحظة المناسبة؛ فرأى المدير المالي واقفًا بإضبارته في يده، منكوش الشعر، لغده الأحمر ضارب إلى الزرقة مثل رعشات رقبة ديك مهتاج. ألقى الديك التحية وجلس في مقعده المعتاد بجوار كاتب الجلسة، وشرع يُحدِّق في ثابت سند الذي استشعر إحساسًا بالقلق لم يعرفه منذ تعيينه في منصبه.

تجاهل نظرة الديك، وعاد إلى التشاغل بالإضبارة أمامه. أخذ يُقلِّب في أوراقها متظاهرًا بالاستغراق في القراءة. انتبه إلى مذكرة داخلية مستوفية الأصول في المضمون والشكل. اللغة مؤدبة. الغلاف من الورق الأزرق السماوي ذي العلامة المائية بختم الهيئة، وبداخله أوراق بيضاء، والخلاصة في الختام على ورقة عاجية فاخرة، تحمل الرقم والتاريخ وأسماء المخاطبين بنسخ من المذكرة.

فكَّر في الرحلة التي قطعتها كل ورقة قبل أن تجتمع مع غيرها في هذه المذكرة. الورقة الفاخرة كانت ذات يوم قطعة من لحاء شجرة في غابات فنلندا والعادية كانت حزمة قش أرز من حقل صيني.

ـ هل بوسع شجرة في غابة لبلاند أو نبتة أرز في سهول مالانداي أن تتوقع لقاءً كهذا، مهما عبثت برأسها الريح؟!

أثاره الخاطر الذي لم يفكر به من قبل، وأعاد التقليب في الأوراق، بأمل اكتشاف صلات الدم بين ورقتين في الإضبارة، حيث يفخر بأنه استطاع أن يكشف علاقات على هذه الدرجة من الخفاء بين الموظفين.

تسلم منصبه بعد عشرات السنين من استقرار عادة توريث الوظائف، حتى دبَّ الوهن في سلالة الموظفين. وأوشكت الهيئة على التفسخ. اكتشف كل ألاعيب التحايل على اللوائح. بعضهم كان يخطط للأمر مبكرًا فيعبث ببيانات تسجيل مولوده، بإسقاط اسم الجد الثالث من اسم الابن أو تخطي الرابع الواضح في اسم الأب وإضافة الخامس بدلاً منه، أو بحذف وإضافة حرف أو نقطة من اسم

الأب؛ فيتحول خيري في أوراق ابنه إلى خير وصبحي إلى صبح، أو يتحول سامح إلى شامخ وشندي إلى بشندي وهكذا.

استطاع، حتى، أن يكشف التوريث التبادلي الأكثر لؤمًا وخفاءً: مدير في الهيئة يُعيِّن ابن مدير في هيئة أخرى، والثاني يرد المجاملة في ابن الأول. واستطاع أن يضبط تعيين المديرين لأبناء قراهم لقاء رشىً عينية من المحاصيل والدواب وعقارات تُنقل ملكيتها في السر.

# 4

سمع نقرات كعب مديرة إدارة المشتراوات.

اقتربت الفرس من الستين، وتعلَّمت طَرقةُ حذائها بعضَ التواضع دون أن تفقد تميزها. عندما كانت مجرد موظفة صغيرة في قسم الحزم والربط كان لنقرات حذائها على الأرض جمال وقوة إيقاع حذاء راقصة فلامنكو. يترك كعبها على البلاط أختام عبور السعادة إلى القلوب، وكانت القلوبُ تذبل بينما تراقب أثر تلك الأختام يبهِتَ ثم يتلاشى تحت وقع أقدام رعناء أو بفعل هبَّةِ هواءٍ غادرة تدخل من شُبَّاكٍ مفتوح.

اشتهاها الجميع. حتى هو تحركت غريزته نحوها ذات مرة في شبابه الأول. لم تَرُدَّ يومًا على محاولة غزل بكلمة يمكن أن تُمسك عليها. جسمها هو الذي كان يتولى الرد، يميل على المغازلين مثل غصن. ولم يكن الرجال يأملون بأكثر من استنشاق فوحها؛ لأن كلاً منهم لديه في الهيئة زوجة تراقبه أو ابنًا يمكن أن يشي به لأمه. استرخى جسمها متجاوزًا حد الاستدارة المغوية، لكنه لم يزل عطوفًا.

حيِّت الفرس وتقدمت، ثم جلست في مواجهة الديك وتبادلت معه نظرة إصرار. رمقها الرئيس، فلم يطرأ عليها أي ارتباك. جسمها الطري امتص صدمة نظرته المتفحصة وبدورها حدَّقت به فانكسف. أكثر من مرة فكر في تنحيتها عن منصبها، لكن ثدييها الجميلين السابقين كانا يطلان عليه في اللحظة الأخيرة فلا تطاوعه يده على توقيع القرار. كان رؤساؤها يُحمِّلونها أضابير المسائل العويصة، وكان على الشاب الصامت ثابت سند أن يتفحص الأوراق قبل تقديمها للرئيس، وكان يطيل التدقيق مبتهجًا تحت حراسة ذينك النهدين.

لم يشعر بوصول مدير الإدارة الهندسية؛ فقد دخل الأرنب بخطوته غير المحسوسة ورعشته الواضحة. لم يرتد الكمامة إلى اليوم، مكتفيًا بالجلوس على الطرف البعيد من الطاولة. إن مات لن يموت من الوباء، بل من الهلع. يبدي من الخوف للرئيس أكثر مما يبديه أي من مديري الإدارات الأخرى، بل أكثر مما أبداه أي مدير إدارة تجاه أي رئيس للهيئة منذ أن كانت مخاطباتها على رقاع من جلد الماعز. هو الوحيد الذي لم ينقص منسوب خوفه من ثابت باشا في ظل الجائحة التي غطى خوفها على كل خوف.

وثابت منقسم المشاعر تجاهه. باستثناء تواضع هندامه، يراه شبيهه أحيانًا فيعطف عليه، وأحيانًا يستمتع برؤية سلطته في عيني الرجل الخائف، وفي أوقات أخرى يشعر بالتشفي فيه. مع الوقت صار بينهما ما يشبه تضامن ممثلَين على خشبة مسرح. يرتكب الأرنب خطأ صغيرًا؛ فيرد ثابت

سند بقدر كبير من التوبيخ، يبدي الأرنب قدرًا أكبر من الهلع ويسلك كل دروب الاعتذار، فيرد الرئيس بصمت يحمل معنى التسامح المزدري، فتنتشر رائحة الخوف. لكن ذلك لم يعد مجديًا.

ـ استحكم اليأس فاضت الوقاحة في القلوب.

همس ثابت لنفسه، ولم يكن تقديره خاطئًا؛ فقد دخل مدير مراقبة الجودة بوجه بدا عبوسه مستقرًا، وكأن هذا الحدأة لم يعرف إلا هذه الجهامة. عُمْره من عُمْر ثابت لكنه يبدو أسنَّ منه، ومع الوباء صار أقرب إلى شيخ متهدم. والآن يدخل إلى الاجتماع بلحيةُ مشعثة، بدلته مدعوكة كأنه ينام فيها، لكن عينيه متربصتين على حالهما.

أحس ثابت بالقلق. يعرف أن الحظ من الخوف هو القسمة العادلة في قلوب كل البشر. لا أحد يمكن أن يتعالى عليه أو ينجو منه. عرفه طوال حياته ولم يزل يعرفه عندما يلتقي برئيس المنظومة، لكنه استغرب أن يداهمه هذا الشعور المذل في عقر مكتبه، مثلما يستغرب رؤية أحد موظفيه مصادفة خارج البرج، فيعتقد أنه ليس الشخص الذي يعرفه.

ـ أنت الرئيس!

هتف لنفسه، ولجأ إلى اللجام المضمون لكبح الجامحين؛ تركهم رازحين تحت ثقل الصمت. متظاهرًا بالاستغراق في فحص إضبارته.

زفر الديك الهواء من منخريه حتى انتفخت كمامته، وأراد أن يقول شيئًا، لكن الرئيس استبقه وسأله:

ـ كيف حال زوج ابنتك؟

لم يرد الديك، وتبادل نظرات حيرى مع الحدأة، فعاجله الرئيس:

ـ لا، لا. لم أقصد موظف إدارة الجودة، أسأل عن مشكلة زوج الكبرى، الموثِّق.

واصل الديك الصمت بغضب كظيم. وقد تأكد أن المشكلة وصلت إلى ثابت سند، بعد أن أوهمه مديرا التوثيق والأمن بأنهما سيتركانها له ليعالجها كشأن عائلي!

منذ يومين، نزلت ابنته الموظفة في إدارة التغذية إلى زوجها في إدارة البصمة والتوثيق، كي يغادرا معًا كما اعتادا؛ فضبطته فوق زميلته في أحد الممرات بين صفوف الخزائن. نظر إليها بثبات دون أن يُغيِّر وضعه، وقال:

ـ لا تظني السوء، أحاول فحسب الحصول على بصمتها.

# 5

أحس ثابت سند أن مفعول الصمت سرى خدرًا في أعصابهم؛ فرفع يمناه، وصوَّب سبَّابته التي استطالت خلال عشر سنوات من إصدار الأوامر، تجاه كاتب الجلسة بأمر قراءة تقرير الاجتماع السابق.

بدا لُغد الديك أكثر تهدلاً وسوادًا، وهمَّ أن يقول شيئًا، فأوقفه الرئيس مرة أخرى:

ـ نلتزم بجدول الأعمال، لن أسمح بتخريب تقاليد الاجتماع تحت أي ظرف.

قالها بنبرة تحكَّم في هدوئها، وبدأ مدير المكتب القراءة، عبر الديباجة الثابتة بهمهمات سريعة، ثم أخذ بالتمهل في قراءة البنود الأساسية. يقرأ البند ثم القرار. وعندما انتهى من القراءة مررَّ المحضر للتوقيع.

وبدأ ثابت سند قيادة دفَّة الاجتماع. بدأ بسؤال إلى مدير الإدارة الهندسية بخصوص إصلاح مصعد الأثاث.

تلعثم الرجل:

ـ سيادتك،... تحديد .. وما .. بعد معاينة. سيادتك...كذاب..هذا.. لن،

بأنامل يمناه المضمومة أخذ يهدئه؛ فوضع الرجل رأسه في إضبارته وأخذ يقرأ من تقرير المعاينة الجديد الذي يتطابق مع سبعة تقارير سابقة، ويؤكد تلاعب شركة الصيانة.

نظر الرئيس إلى مدير مكتبه مستفهمًا عن مصير هذا التقرير، فأجابه:

ـ أمام الإدارة القانونية، سيادتك.

أحس الرئيس بالإحباط ولم يقل شيئًا؛ فالوباء أتي على ثلاثة أرباع عدد المحامين. وهو بنفسه الذي أصدر قرارات تخفيض أعداد الحضور للحفاظ على البقية.

ـ أريده في أقرب فرصة.

قال، زافرًا ضيقه من المشكلة التي تتصدر جدول الأعمال منذ ثلاثة عشر شهرًا. ثم نظر إلى الفرس، ومنحها الكلمة لتطلع المجلس على تطورات مشروع جدارية الفسيفساء على واجهة البرج. رفعت نظارتها التي كانت مدلاة على صدرها من ذراعيها المقيدتين بسلسلة فضية تطوق رقبتها.

فتحت إضبارتها وبدأت تقرأ، ذكرت أسماء الموردين الذين تخاطبت معهم مجددًا على مدار الأسبوع الماضي، أكثرهم استعدادًا وعد بتقديم عرضه بعد أشهر.

كان من المقرر رفع الستار عن الجدارية في العيد الذهبي للهيئة. ولحساسية الأمر لم يحتل المشروع البند رقم واحد في جدول أعمال الاجتماعات منذ طرح الأرنب فكرته في أحد اجتماعات العام قبل الماضي.

أُنجزت خطوات طويلة. في البداية ذهبت الفكرة نحو إنشاء لوحة ضوئية لرئيس الهيئة، وأُعلنت مناقصة لهذا الغرض، ورست على شركة ممتازة. وبعد إنجاز النموذج على الكمبيوتر لم يسترح له الرئيس. ظل أيامًا يبحث في نفسه عما لا يعجبه في اللوحة التي يبدو فيها وكأنه يتحرك فوق رؤوس الداخلين والخارجين، ولم يعرف لماذا لم يسترح لها. وفي لحظة إلهام هتف:

- النور.

هكذا وجد التفسير. للنور طبيعة هشة جعلت حركته تبدو جريًا في المحل، بلا أي تقدم، كما يحس أن وجوده سيبقى رهنًا لمقبس الكهرباء، بخلاف جداريات الفسيفساء التي تشع أحجارها ضوءًا عنيدًا.

وجَّه بطرح مناقصة لعمل جدارية. ورسى العطاء على فنان لديه سابقة أعمال جيدة. أنجز الفنان الماكيت على الكمبيوتر. صورة لثابت سند واقفًا بارتفاع الطابقين فاتحًا ذراعيه لاحتواء نهر الداخلين والخارجين. أزيلت الكسوة الرخامية للطابقين الأول والثاني، ووُضعت طبقة من الأسمنت الخشن مكانها، وبات الجدار جاهزًا لاستقبال اللوحة. لكن هذه الفكرة تغيرت عندما وُلد الأمل في دعوة رئيس المنظومة لقص شريط اللوحة.

طلب ثابت سند تصميمًا يقف فيه في مقابل رئيس المنظومة، وأنجز الفنان نموذجه من صورتين للرجلين بدا فيه ثابت سند أطول من رئيسه؛ فخرج عن شعوره، ورمي أم الفنان بأقذع الأوصاف.

- رسم نهايتي في الحياة، وليس في الهيئة فحسب!

أدركت الفرس ما فكَّر به وجعلها ترى واحدة من هبَّاته النادرة جدًا. وأبلغت الفنان بالتغيير المطلوب، فجعل حجم ثابت سند أصغر من حجم رئيس المنظومة، ثم توالت التعديلات التي تعلق بعضها بحدود الابتسامة وحدود حركة الذراعين، وفي كل مرة يجري الفنان التعديل اللازم على الماكيت بالكمبيوتر، وما إن يضع تخطيطه على الجدار حتى يصله توجيه بتغيير جديد. ولم يرض ثابت سند عن الرسم الأخير حتى جاء الوباء فبقيت اللوحة تخطيطات باهتة على الجدار الإسمنتي. أمر بتغطيتها، وكلما اشتاق إلى رؤية الجدارية بكامل بهائها يفتح الماكيت المحفوظ على جهازه، ويتأمل الشكل الذي ستؤول إليه التخطيطات بعد أن تتراصف الأحجار الكريمة وشبه الكريمة بألوانها المختلفة لتصنع الملامح والظلال.

# 6

كأنها تقرأ أشواقه التي يتحاشى التعبير عنها، اقترحت الفرس تغيير الستارة الخيش التي تغطي المشروع بأخرى مطبوعًا عليها الشكل النهائي للجدارية. ثم رفعت نظارتها من فوق عينيها، ونظرت في عيني ثابت سند، وهمست:

ـ ستنتهي هذه الفترة، وسنرى هذا الجمال قريبًا.

جعلت من نبرها الناعس سُلَّمًا لرجال الاجتماع لكي يصعدون عليه، ويقدموا برغبتهم في تعليق الاجتماع الأسبوعي. لكنه ليس نائمًا على أذنيه، يعرف ما تبادلوه في مكالماتهم بالحرف الواحد.

أخذ يُقلِّب نظره بينهم. عيونهم تتبادل النظرات المتضامنة، وقبل أن يتفاهموا على من يتكلم أسعفه تليفونه بالرنين. نظر إلى شاشته مفتعلاً الاندهاش ليوحي بأهمية المكالمة، وانسحب، موجهًا بانفضاض الاجتماع.

أغلق باب غرفة مكتبه على نفسه. لم يكن المتصل سوى زوجته، لاحقته بأسئلتها الروتينية عن يومه. جاوبها باقتضاب كأنها متدربة مبتدئة، وأغلق الخط دون وداع.

جلس، وأسند رأسه إلى ظهر الكرسي، وأغمض عينيه. يحس غضبًا يأكله، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل. استعاد في خياله صورته الضوئية الراكضة، وهمس لنفسه:

ـ يريدون نزع المقبس.

للمرة الأولى يشعر بالحسد بل تجاه من سبقوه فوق هذا الكرسي، جاءوا وذهبوا دون أن يقفوا على هوَّة المعرفة المخيفة التي حدَّق في فوهتها مبكرًا جدًا.

قام عن مكتبه وقطع الخطوات إلى الواجهة. كانت الشمس قد تحولت عن المدخل الساكن. أخذ يقطع المسافة بين الشباك ومقعده ذهابًا وإيابًا. شرع في تمرين التنفس الإيقاعي لتصريف العصبية وتشتيت الأفكار السيئة. أخذ شهيقًا عميقًا؛ فأثقلت صدره رائحة بخار نتنة تهب من جهة مطبخ الاستراحة وتقتحم عليه المكتب المغلق.

# ٢٢ يوليو ٢٠٢٠

لحظة وقوع الحادث كانت الحاجة سمحة تفعل ما تفعله يوميًا.

كانت قد أزاحت الستائر وزجاج الواجهة إلى الجهتين. غسلت إناء الماء وملأته، ونثرت حوله القمح على الإفريز فهوت إليها الطيور من قمة الشجرة الأعلى، وصعدت من قمم الأشجار الأدنى.

في تلك اللحظة؛ في سكينة ما بعد الفجر، عندما يبدأ نورُ البكور في بسط سلطانه الناعم، يكون الساهرون قد آبوا إلى أسِّرتهم، والمُبْكرون لا يزالون يستنهضون عزيمة أبدانهم، وتكون الكلاب قد استسلمت للنعاس بعد إنهاك الثرثرة والنباح طوال الليل، والسيارات مستغرقة في أحلامها بالطيران وكوابيس السقوط، ولا يكون هناك صوت في الشارع غير تغريد العصافير وتسبيح الحاجة سمحة التي تشعر بأن روحها تفارقها وتلهو مع الطيور.

لم تتقاعس يومًا عن ذلك اللقاء ولم تتخلف العصافير، غير أن الطيور ظلت شابة، ولم تلاحظ أبدًا أن السيدة تهرم، لأنها أخذت تتخلى عن شيء من مسئولياتها مع كل تدهور في صحتها، إلا صلاة الفجر وإطعام الطيور، إذ تبلغ تلك الساعة بعزيمة في قلبها لا تنقص وقوة في مفاصلها تتجمع خلال الليل قطرة، قطرة.

بمجرد أن تسمع الطيور احتكاك ظلفتي الزجاج لحظة فتحهما تُقبل من فوق شجرة البونسيانا الضخمة في ساحة المسجد القريب في تشكيل كالسهم، بينما يصعد سهم آخر من عصافير العمامات المستديرة لشجرات الفيكس أمام العمارة. تحط جميعها على الإفريز تحجل وتزقزق. تنثر الحاجة سمحة الحبَ وتقف للاطمئنان على إفطارها، تتحدث إليها واحدة واحدة:

ـ أمامك الحَب، التقطي يا هبلة.

ـ اشربي قبل أن يسخن الماء.

أو تنهر غرابًا:

ـ امش، يا شؤم.

حتى اليمام الشكَّاك لا يتهيب عبور النافذة الكبيرة المفتوحة إلى داخل الشقة. تبسط له الحاجة سمحة حفنة قمح في راحة يدها فتحط عليها اليمامات وتلتقط، ثم تطير في دوائر، وتخرج مغردة لتحط على الإفريز مجددًا. تحجل فوقه مع العصافير، وتتشبث بحافة الإناء وتغرق مناقيرها في

الماء. جاءت أثناء الحظر طيور لم تظهر في المدينة من قبل؛ غربان، نوارس، وحتى عقبان، بدأت الحاجة سمحة تحتفظ بعصًا قريبة من يدها لإبعادها عن الطيور الصغيرة.

ولم يكن هناك شيء مختلف هذا الصباح سوى أن زوجها استيقظ مبكرًا على غير عادته، وتبعها إلى الواجهة. وحسب روايته فيما بعد فقد وقف وراءها يراقب لعبها مع الطيور دقائق قبل أن تنتبه إلى وجوده. أبدى انبهاره بجمال وقت البكور الذي يفوِّته على نفسه بالنوم، وأخذ يستنشق بشراهة متلذذًا هواء، ليس هواء مدينة الغبار الذي يعرفه!

ـ كانت الحاجة سمحة شابة تمامًا، حتى أن المفاجأة أفقدتني وعيي لحظة صغيرة مثل طرفة عين، أفقت منها فلم أجد الحاجة، كأنها تبخرت، ثم رأيتها مثلما رأيتها أنت، فوق شجرة الفيكس.

قال لسالم، الذي تسلق الشجرة ووجدها سليمة، لا تعاني إلا وهن مرضها المعتاد. عند الظهر قرأ الطناحي تغريدة لحسام فخري على تويتر: «تجرَّد زوج من إنسانيته وألقى بزوجته المريضة من الطابق الخامس».

يقضي حسام معظم وقته خلف ثقب بابه، ليراقب صعود طِعمة إلى شقة سعيد الطناحي، وقد ألمح الولد من قبل إلى علاقة مشينة بينهما. والطناحي يتابعه على كل منصات التواصل؛ فهو لم يقبل لنفسه العيش منفيًا بعيدًا عن عالم الإنترنت مثل أبناء جيله.

تعلم إنشاء حسابات على تويتر والفيسبوك وانستجرام. وحسام ـ الذي عاد من الخارج دون أبويه للالتحاق بالجامعة ـ لا يعرف أن «شهرزاد النائمة» التي تتابعه على التطبيقات الثلاثة ليست سوى الجار الذي يناصبه العداء.

ليس لدى حسام سوى خمسة عشر متابعًا، يتبادلون نشر مقاطع الفيديو والأغنيات، لكنه يكتب بين الحين والحين تلميحات عن كهل متصاب، يفهم منها الطناحي أنه المقصود. تصمت شهرزاد مرة، ومرة ترد بلوم خفيف لا يستفز حسام إلى درجة تجعله يحذفها من قائمة متابعيه، وأحيانًا ما تكتب دون مناسبة عن حُرمة التجسس والنميمة في العموم، لكي يستحي حسام.

رغم خطورة الاتهام في التغريدة الأخيرة إلا أن العمدة المتخفي وراء شهرزاد التزم الصمت في العالم الافتراضي، والتزم البقاء بشقته في العالم الحقيقي، يتفقد بين الحين والحين الحاجة سمحة، ويبحث في تليفونه عن صدى التغريدة على تويتر. رأى عددًا قليلاً من التغريدات المشابهة، ولم يجد شيئًا في المنصات الأخرى، وحتى ساعة متأخرة من الليل بدا له أن أحدًا لم يلتفت إلى ما كتبه الجار الشاب، وحمله الإرهاق إلى النعاس.

# 2

بعد ساعات قليلة من نوم مزعزع، فتح العمدة عينيه، وأخذ ينبش في تليفونه قبل أن يرفع رأسه عن الوسادة؛ فوقع قلبه بين قدميه.

كان عديد من مواقع الصحف والتليفزيونات على شبكة الإنترنت يتحدث عن زوج ألقى بزوجته من الشُبَّاك، في صيغة شبه معممة: «تجرد زوج من المشاعر الإنسانية وألقى بزوجته من الطابق الخامس عندما علم بإصابتها بالكورونا». كاد قلبه يتوقف بينما يطالع هذه الجملة في كل المواقع. فتح التليفزيون فوجد مذيعات يهمسن ومذيعون يزعقون بالجملة نفسها عن الزوج المتجرد من الإنسانية.

تمالك أعصابه، باحثًا عن منصات تقدم تفاصيل أكثر، فوجد في موقع صحيفة واحدة بعض التفاصيل الإضافية التي قللت خوفه وشوَّشت ذهنه في الآن ذاته. تبدأ القصة في الصحيفة من رؤية المارة لشيء يطير من نافذة في الطابق الخامس، وعندما ارتطم ذلك الشيء بالأرض تبين أنه سيدة، ووجدوا أنها مصابة برضوض وكسور، لكنها لم تمت.

تصدرت القصة مواقع التواصل. تعليقات تُشكك في الواقعة لاستحالة بقاء إنسان حيًا بعد أن يسقط من الطابق الخامس، تدوينات تتحدَّث عن معجزة، والبعض يشكك في الارتفاع متحدثًا عن خطأ أو مبالغة: هل سقطت من الخامس حقًا؟! لابد أنه الطابق الأول أو الثاني. والبعض افترض وجود ضربة حظ أغفلتها الجريدة كأن تكون المرأة قد علقت على حبال الغسيل في شرفة طابق آخر أو سقطت على حمولة من البطاطين على ظهر عربة عبرت في تلك اللحظة، لكن كل هذه التشككات حول الواقعة جرفتها موجة عالية من السباب الموجهة للزوج المتجرد من الإنسانية.

في اليوم التالي، اهتمت مواقع عدة بالواقعة، وأوردت تفاصيل إضافية عن تعذر استجواب الضحية التي ترقد في المستشفى فاقدة الوعي، لكن النيابة باشرت استجواب الزوج.

أشارت المواقع إلى الجاني بحرفين «س، أ» وهو ما يطابق حرفي اسم سعيد الطناحي ولقبه، لكنها أشارت إلى الضحية بحرف الشين. أخذ يردد اسم زوجته: سمحة..سمحة. أحس بالارتياح للحظة، ولم يلبث أن فكَّر في الأخطاء الطباعية:

ـ ما أسهل أن تتحول السين إلى شين.

قال لنفسه مرتبكًا، ثم عاد إلى تدقيق كل كلمة في تفاصيل الخبر، واكتشف أن الخوف منعه من الانتباه إلى أن الزوجة التي يتناولها الخبر سقطت على الأرض وليس فوق شجرة.

- ربما أرادوا التهويل؟!

أعاد القراءة فانتبه إلى أن الضحية سين في المستشفى وزوجها رهن التحقيق. انطلق إلى غرفة الحاجة سمحة، تقدم وجلس بجوارها على حرف السرير. أمسك بيدها ليتأكد من أنها موجودة بجواره، وأنهما في شقتهما؛ فأحس بالأمان. لكنه ظل مشوشًا باللغز، يتفحص تليفونه كل لحظة.

بدأ سيل من التغريدات على تويتر تحت وسم #حاكموا_المجرم، تطالب بأقصى العقوبة لمجرم تجرد من المشاعر الإنسانية. ولم يكن الغضب أقل في تدوينات الفيسبوك التي اتجه البعض منها إلي تحليلات موسعة حول الجريمة من وجهة نظر علمية.

طبيب نفسي شرح سيكولوجية العزلة، آخر استدعى خبرات الكراهية التي تنشأ في أوقات الخوف، والبعض تناول الأمر من وجهة اقتصادية في زمن البطالة التي يعانيها فقراء انقطعت أرزاقهم بسبب الوباء، وسرعان ما هبَّت أمواج من التغريدات والتدوينات تتهم أصحاب هذا الطرح بخلق تبريرات لجريمة بشعة لإدانة السلطات. وذهب البعض إلى أن السلطات هي التي اختلقت الحادث لإلهاء الناس عن جرائم حقيقية تحدث تحت أعين الجميع ولا يستطيع أحد أن يتكلم عنها. وبدأت موجة من تغريدات الناشطات النسويات، ترى في هذه الجرائم تعبيرًا عن انحطاط الوعي الذكوري الذي يتعامل مع المرأة كما لو كانت جهازًا منزليًا يجب التخلص منه عندما يتعطَّل.

في المساء عرف الطناحي من برامج التليفزيون أن وسم «حاكموا المجرم» ظل الأعلى طوال اليوم، وأخذ يتنقل بين القنوات التي خصصت أمسياتها مجددًا لمناقشة الحادث، في لقاءات مع ضيوف في استديوهاتها، تتخللها استشهادات مقدمي البرامج بتدوينات الفيسبوك وتغريدات تويتر التي تظهر على الشاشة بأسماء أصحابها.

# 3

لم يمض يوم آخر حتى انقسمت تغطيات الصحف والقنوات والمواقع. شطر منها أورد أن الحادث وقع في حي عشوائي بشرق المدينة، واستفاض في نشر استجواب النيابة للمتهم، الذي نُشر اسمه بلا تحفظ: «سمير الصاوي» وقد أصرَّ على أن زوجته «شهد» هي التي ألقت بنفسها من النافذة بسبب خلافات عائلية وليس بسبب الكورونا، وطلبت النيابة تحريات الشرطة، ونتيجة فحص الضحية لمعرفة إن كانت مصابة بالكورونا أم لا.

البعض الآخر من وسائل الإعلام نشر تقريرًا مطولاً عما بدا حادثًا آخر في غرب المدينة، ضحيته سارة، يجري البحث عن زوجها الهارب «سميح آريانوس» لاستجوابه.

وعلى إثر هذا الاختلاف انقسم نشطاء تويتر والفيسبوك بين مطالبين بإعدام سمير ومطالبين بإعدام سميح.

وتوالت المتابعات في المواقع، كل بما بدأ به. مواقع شهد لا تقترب من أخبار سارة، ومواقع سارة لا تذكر شيئًا عن حادث شهد. ولم يعد واضحًا ما إذا كانا حادثين أم حادثًا واحدًا تشوش في بعض المواقع التي تنقصها الدقة، حقيقة أم زوبعة مختلقة، فبدأ بعض رواد التواصل الاجتماعي في الانسحاب من التعليق.

نشرت منصات شهد أن نتيجة اختبار الفيروس لديها جاءت سلبية، بينما استمر تعذُّر استجوابها حتى الآن. ونشرت منصات سارة عن ظهور زوجها الذي كان مختفيًا، وتفاصيل تحقيقات النيابة معه. نفى سميح تهمة الهروب، وأثبت بتقرير من مستشفى أنه كان مرافقًا لصديقه حمادة رزق الذي دخل المستشفى بطعنة نافذة مزَّقت كليته قبل حادث سارة بليلة، مؤكدًا أن شحن تليفونه نفد في المستشفى ولم يهتم بالبحث عن شاحن، لأن حالة صديقه كانت خطرة جدًا طوال أربع وعشرين ساعة.

وأبرزت تلك المنصات في عناوينها قوله إن سارة هي التي كانت تشك في إصابتها بالفيروس، وإنه كان يُطمئنها، ولا يمكن أن يوجه لها لومًا أو يؤذيها لهذا السبب، واختتمت بقرار حبسه خمسة عشر يومًا انتظارًا لتحريات المباحث.

ثم نشر موقع صحيفة مقابلة اعتبرها سبقًا حصريًا مع لمياء صديقة شهد وكاتمة أسرارها، قالت فيها إن المصابة اعتادت أن تسحب من زوجها أموالاً تنفقها على نزواتها؛ حيث تحب الحلاوة الطحينية والمشبك جدًا، كما تحب أحمر الشفاه والأحذية ذات الكعب العالي، وقالت الصديقة للصحيفة إن شهد أطلعتها على مفكرتها التي تدوِّن فيها يومياتها ومصروفاتها، وجعلها ذلك تشعر بالذنب، وقالت لها إن سمير صعبان عليها، لكنها عاجزة عن منع نفسها من التبذير، وإن خير وسيلة

لإراحته منها هي أن تنتحر. ونشرت الصحيفة صورة كبيرة لشهد ولمياء متحاضنتين في حديقة عامة، وصورة أصغر حجمًا لسمير الصاوي مطموس العينين باعتباره لم يزل متهمًا.

وعلى صفحتها في الفيسبوك ردَّت هالة، وهي صديقة أخرى لشهد على شهادة لمياء للصحيفة مُكذِّبة كل ادعاءاتها، وألمحت إلى وجود علاقة آثمة تربط سمير بالصديقة المتعاطفة معه، مؤكِدة أن شهد اكتشفت مؤخرًا هذه العلاقة. وشددت هالة في ختام تدوينتها على أنها لا تستطيع أن تؤكد إن كان حادث سقوطها محاولة انتحار أم أن سمير ألقى بها من البلكونة أثناء مشاجرة بينهما.

الجديد في منصات سارة المستغرقة في غيبوبتها جاء في أقوال شهود عيان من الجيران، أجمعوا على أنهم لم يسمعوا مشاجرة أو استغاثة قبل أن تلتقط آذانهم دبيب سقوطها على الأرض، مما يُرجِّح فرضية محاولتها الانتحار ويعزز فرص سميح آريانوس في البراءة.

الشيء الوحيد الذي أخذه سعيد الطناحي على سميح هو صورته المنشورة مع شهادات الجيران، ويبدو فيها متشردًا حقيقيًا، لا تبعث ملامح وجهه ولا شعره المنكوش على الارتياح.

# 4

توالت إصباحات وأمسيات بأخبار سقوط النساء من بلكونات ونوافذ المناطق العشوائية، في الشمال، في الجنوب، في الشرق، في الغرب. وسرعان ما اجتاحت الظاهرة كل أحياء المدينة. لم يعد أحد يتذكر أسماء الضحايا، أو يسأل إن كانت حوادث انتحار أو جرائم قتل، وتمدد النسيان ليشمل أول حادثين، بعد أن صارت ضحايا هذه الحوادث مجرد أرقام تدخل في جملة الإحصاءات اليومية لإصابات ووفيات الوباء.

أحس الطناحي أن اتهامه بإلقاء زوجته من النافذة بات بعيدًا بشكل أكيد؛ فغادر شقته للمرة الأولى بعد أسابيع من حبس لا يطيقه، طالت خلالها لحيته بيضاء كالحليب، وحالت صبغة شعره إلى البنفسجي. كان الوقت ضُحى، والمدخل ساكن، أمعن في الإنصات فلم يسمع صوتًا في غرفة البواب. خطا نحو الباب، وفي نيته التمشية لبعض الوقت. رأى سالم وطِعمة جالسين في ظل شجرة الفيكس القريبة من الباب.

ـ العمدة!

صاح سالم، وتنازل له عن كرسيه، وجلس على الأرض في مواجهته، بينما ظلت سمحة على كرسيها. سألت الطناحي عن صحة الحاجة.

ـ بخير، نحمده.

ـ الحاجة بركة والله.

قالت، فارتسمت على وجه الطناحي ابتسامة باهتة، وأغلق عينيه هازًا رأسه، كمن يتوغل في كهف، ثم فتح عينيه وظل ساكنًا كعادته عندما يريد أن يفضفض بشيء ويتعزز حتى يُطلب منه ذلك.

ـ مالك يا عمدة؟

سأله سالم؛ فمط شفتيه، وأجابه:

ـ أبدًا، أتذكر لحظة طيران الحاجة.

قالت طِعمة:

ـ لو سقطت على الأرض كانت ماتت يا عُمدة.

ـ لم تسقط. طارت ثم عادت وحطت فوق الشجرة، افهمي الكلام.

قال بضيق، وأحس سالم بالراحة للضيق الذي أبداه الطناحي بكلام طِعمة، وأراد أن يبدو أكثر تفهمًا منها؛ فسأله عن حلم الحاجة الذي حكاه له على انفراد بعد الحادث، ولم يعره انتباهًا وقتها. بادره:

ـ الغريب أنها حلمت بما حصل يا عمدة!

هز الطناحي رأسه، وقال مؤمِّنًا:

ـ شيء عجيب فعلاً!

وبعد لحظة صمت جديدة، شرع يحكي لهما الحلم الذي استيقظت به الحاجة. رأت نفسها وكأنها تسكن المتجر المغلق المهجور بالعمارة. لكن زجاج الواجهة العريضة المترب كان في الحلم نظيفًا وشفَّافًا، ترى من خلاله العابرين ويرونها. كانت مقرفصة على الأرض بين عصافير دوري، تغرد وتحجل حولها في الشمس التي غمرت الأرضية، دققت في العصافير جيدًا فأخذت تتحول تحت نظرها إلى أفراخ بط بزغب الميلاد الأخضر، ما لبثت أن بدأت بالتدافع تحاول التحليق. يقفز الفرخ لأعلى، فيصطدم بالزجاج ويسقط تحته، ويتحول إلى فراشة، تحلِّق وتنفذ عبر الزجاج إلى الشارع، وبدأت الفراشات تتجمع في سرب بالخارج، وتقترب من الزجاج لتناديها فتحولت إلى فراشة، وطارت والتحقت بالسرب.

تنهَّد، مستجمعًا قدرته على الاستغراب:

ـ موَّجت ذراعيها لتصف لي كيف كانت تطير كفراشة، وفي غمضة عين، لم أجدها أمامي.

بدت طعمة مستغرقة، ولم ينته حتى ضحكت باستهتار:

ـ هي هيء! عصافير تتحول إلى بط، وفراشات، ممكن، لكن الحاجة تتحول لفراشة؟ كيف يعني؟!

ـ هذا حلم، افهمي الكلام.

أجابها الطناحي، وسكت مجددًا، وعندما لم يطلب أحدهما منه استئناف الكلام، ضحك ضحكة مقتضبة، واستأنف:

ـ كانت صريحة كالعادة، قالت إنني كنت بين المارة، وهي داخل سرب الفراشات فوق رأسي تمامًا، وأنني نظرت إلى السرب، وكانت سعيدة أنني لم أتعرف عليها.

ـ ضروري تفرح لما تنعتق منك يا عمده!

قال سالم باسمًا، فردَّ الطناحي غاضبًا:

ـ أما إنك جحش، هذا ليس وقت هزار!

وعاد إلى الصمت، لكن ذلك لم يدم لحظة، واستأنف:

ـ كنت أنظر إليها، وجدتها شابة تمامًا، كأن معجزة خلَّصتها من المرض، سرحتُ في أيام شبابنا..

رد عليه سالم:

ـ سبحان من له الدوام يا عمدة!

ـ ونعم بالله. القصد. الله يلعن المرض، الحاجة كانت جميلة. تعرف أنها كانت بطلة سباحة؟

لم يدع فرصة للتعليق، وبتنهيدة جديدة، قال:

ـ سهوت عنها لحظة، غمضة عين.

انتبه إلى استغراق طِعمة في مراقبته، فتحسس لحيته وابتسم. حاول أن يزحف بالكرسي ليقترب منها، لكن سالم الذي كان يجلس في مواجهتهما انتقل واحتل الفراغ بين الكرسيين، مريحًا ذراعه على فخذ طِعمة. وعاد الصمت بينهم.

انطلقت أصوات هدهدة فوق الشجرة التي يجلسون تحتها، تطلعوا فرأوا هدهدًا يتقافز وراء خليلته، ما كان ليقترب من أشجار الفيكس القصيرة لولا الوباء الذي فرض الهدوء.

منذ سنوات اشتكى السكان من حجب الشجرات الثلاث أمام العمارة للنور والهواء، استدعى الطناحي بستاني طوَّشها عند مستوى سقف الطابق الأول، لم يُبق إلا على الجذع وأصل الفروع الكبيرة التي بدت مثل أصابع يد. وسرعان ما تفجرت البراعم من راحات اليد الضخمة، ونمت لتصبح غصونًا طرية كثيفة. وواظب البستاني على تهذيبها مرة في العام حتى صارت رؤوسها القريبة من الأرض دائرية مثل قبعات خضراء.

تأمَّل سالم الشجرة فوقهم وقال:

ـ الحمد لله، لو سقطت بعد التقليم...

لم يدعه الطناحي يكمل، ردَّ بضيق:

ـ أما إنك حمار صحيح. طارت، طارت. افهم الكلام.

رسم سالم ابتسامة باهتة، والتفت إلى طِعمة وأمرها بالذهاب لإعداد شاي، فقامت، ونط ليجلس مكانها.

عندما صارا وحدهما استأنف الطناحي:

ـ افهم الكلام.

قالها بنبرة هادئة تسترضي سالم، واستفاض في الحديث عن أحلام الحاجة سمحة في الليل والنهار، وفجأة قطع روايته للحلم، وانعطف بالحديث:

ـ هل تعرف أنها تكلم الطيور؟ أكثر من مرة في الشهور الأخيرة أراها واقفة أمام الشرفة، وأسألها عما يجعلها تبتسم؛ فتقول إن العصافير تلح عليها لكي تطير معها. تحاكي زقزقتها، ثم تُفسر لي الزقزقة: «تقول لي لا تخافي، فقط عليك أن ترفرفي بذراعيك كما لو كانتا جناحين».

حدَّق سالم في لحية العُمدة، وأحس في تلك اللحظة أن وجهه مشرق بنور لطيف؛ فبدأ يستمع باهتمام، والطناحي يحكي له.

ـ كنت أفاجئها مرة بعد أخرى وهي تزقزق وترفرف بذراعيها فتتوقف.

اندمج سالم في الحكاية، فنسي أعاد ما نهره عليه العُمدة من لحظات:

ـ الحمد لله أنها سقطت فوق الشجرة.

حدَّق فيه الطناحي زاجرًا، دون أن يشتمه. وبعد صمت طال، سأله:

ـ أنت، أين كنتَ وقتها؟

ـ كنت أبحث عن الولد الصغير في الشارع.

ـ هيه، وبعد؟

ـ من بعيد، شفت الحاجة فوق الشجرة، جريت.

ـ لم ترها لحظة الطيران. طيب اسمع يا جحش. لما اختفت من قدامي بصيت من الشباك، رأيت سحابة قافلة النور. دققت وجدتها سحابة من الطيور، حمام وعصافير دوري ونوارس وفوقها كانت

الحاجة. ارتفعت بها السحابة حتى حاذت الطابق الأخير في العمارة، واتجهت للناصية وطافت فوق قُبة المسجد، ثم عادت، وحطت بها فوق الشجرة، وتفرقت الطيور.

فتح سالم عينيه عن آخرهما، وقال:

ـ لم أر ذلك.

يسأله الطناحي:

ـ كيف كانت عندما حملتها؟

ـ خفيفة جدًا، في خفة الريشة يا عمدة.

واستعاد سالم اللحظة بكل اضطرابها. يتذكر أن تفكيره توقف عندما رآها، جرى إليها حتى تخلى عنه شبشبه. صعد إلى الشجرة ونزل بها بين يديه وهرول إلى داخل العمارة قبل أن ينزل المصعد بالعمدة.

عندما أراحاها في سريرها فتحت عينيها وتمتمت بشكر الله، ولم يكن هناك سوى جلفات بسيطة في جلد يديها ورجليها، بفعل بعض الأغصان الجافة.

ـ في كل حال، هي معجزة يا عمدة.

قال سالم، ولم يسمعه الطناحي، الذي أخذ يتابع باهتمام شخصًا نحيلاً مُقنَّعًا مرق سريعًا. كاد يحف بكتف سالم، الذي نسي ما قاله وانتبه. أخذ يدقق في الشخص الذي خفف من سرعته عندما ابتعد، وبدأ يخبُّ في ملابسه الرياضية.

ـ حسام فخري.

قال سالم، ونظر إلى سعيد الطناحي الذي لم يقل شيئًا، وظل نظره معلقًا بجهة الناصية حيث انعطف الشاب يمينًا واختفى. أخذ يبحث في عقله عن طريقة للتخلص منه، ولم يتحير كثيرًا:

ـ شكوى صغيرة من مجهول ضد شاب ابن ناس طيبين، يزوره شباب لا يبعثون على الراحة، ولا نعرف ما يجري في لقاءاتهم.

بدت له الفكرة جيدة؛ فعاد من شروده، ليكتشف أن طِعمة قد عادت بالشاي، واقتعدت الأرض بينه وبين زوجها. تلقَّف من يدها كوبه وابتسم بارتياح.

# ٢ أبريل من العام الأخير

«ليس بوسعنا أن نُغيِّر ما يحدث في الأحلام. نتلقى ما تقرره القوة التي تسيطر على منامنا فحسب. وهكذا صرنا في مواجهة كوابيس اليقظة هذه الأيام».

كانت هذه العبارة آخر ما كتب بديع العطَّار. عثر عليها شقيقه وديع على مكتبه بعد أن فتح عليه شقته. كان المؤرخ مستلقيًا على وجهه فوق البلاط، جسده أزرق وصلب، مع كدمات بالوجه وآثار دم متجلط حول الشفتين.

ليس هناك من دليل على اقتحام الشقة، سوى أن شُبَّاك المطبخ كان مفتوحًا. ولم يكن بديع يفتح ذلك الشُبَّاك بالذات خوفًا من لصوص أو قطط تهبط من السطح على ميزاب المطر، لكن ربما فتحه بسبب قسوة موجة الحر غير المعتادة في أبريل.

بعد تشريح الجثة، استبعد تقرير الطب الشرعي الشبهة الجنائية، معللاً زرقة الجسم الضاربة إلى سواد إلى فعل الجاذبية، حيث يتجه الدم إلى الجهة التي يستلقي عليها الجسم بعد هموده ويتجمد هناك فتكون هذه الزرقة، أما كدمات الوجه فالأرجح أنها بفعل الارتطام لحظة السقوط. لكن ساكنة الشقة المقابلة قالت إنها سمعت، عند الفجر، صرخة واحدة صغيرة مثل أنَّةِ كلب مستريح داس أحدهم على ذيله.

النصف المعاند من وديع العطَّار يُصرُّ على تصديقها، رغم نفوره من تشبيهها لأخيه بالكلب. يردد كلماتها، بغضبٍ متهكِمٍ من لثغتها: «كلب مستغيح»!

ولا يلبث نصفه الذي ينشد الاطمئنان أن يُقنعه بأن ما روته غيداء ليس سوى تهيؤاتِ سيدة مريضةٍ؛ لأن زوجها الموسيقار رامي حنا، قال في التحقيقات إنه كان مستغرقًا في النوم ولم يسمع شيئًا. نوم الشيخوخة خفيف، ولو كانت هناك صرخة لكان من المنطقي أن يستيقظ هو لا غيداء.

الغموض مؤلم، ولا أحد يعرف ألمه مثل رامي. لكنه محظوظ أكثر من بديع وشقيقه؛ لم يزل حيًا، ولم تزل غيداء حية، ولديه أمل في تفسير تقدمه له ذات يوم لانصرافها عنه، بينما لن يعود المؤرخ من الموت ليبدد ألم محبيه، لذلك حرص على تهدئة هواجس أسرة جاره:

ـ صدقوني، ليست المرة الأولى التي تسمع فيها غيداء أصواتًا في شقة المرحوم. عندما بدأ الأستاذ بديع اعتكافه كانت تشكو من جلبة أطفال لا تهدأ في شقته، أقول لها: ليس لديه أطفال. تقول: لكنني أسمع صياحهم. أقول ربما كانت أصوات أطفال في التليفزيون يا غيداء. تقول أطفال

التليفزيون لا يدبدبون، أسمع دبدبة على بلاط الشقة. وعندما أقول لها هل تحبين أن أطرق بابه وأطلب منه تخفيض الصوت؟ ترفض وتقول إنها ليست متضايقة إلى هذا الحد.

أسهب في وصف تهيؤات غيداء المستمرة؛ فأدخل راحة الاطمئنان إلى قلبي حازم ويونس، أغلقا الشقة بعد أيام الحداد الثلاثة وعاد كل منهما إلى حياته وشقته البعيدة، بينما ظل موت المؤرخ حيًا في قلب شقيقه، يؤرقه أن وجوده في العمارة ذاتها لم يجد نفعًا. أخذ يستعيد لحظة الصدمة، عندما وقعت عيناه على بديع متمددًا على الأرض. يتذكر انخطاف قلبه في تلك اللحظة، ثم مراودة الأمل له بأن يكون أخوه في إغماءة، ثم صفعة اليأس عندما لمسه وتأكد من تخشب جسمه، ثم سكينة الخسارة، وبعدها لحظات تبلد المشاعر.

يتذكر وقت الانتظار بين مهاتفته لحازم ويونس ووصولهما إليه. جلس ساعة كالدهر، يتأمل فيها الرأس الساكن لشخص كان يعرفه ولم يعد موجودًا، رغم أنه متمدد أمامه. ماذا كان في هذا المخ اللامع قبل أن يتجمد؟ أين تذهب المعرفة التي كانت موجودة حتى آخر نفس؟ هل يمكن للعلم أن يتوصل إلى طريقة لاستخلاص أفكار لم تخرج للنور من مخ بعد موته؟ كيف نستطيع إنقاذ ذاكرة كمبيوتر بعد أن يصمت ولا نستطيع ذلك مع المخ البشري؟

مرة بعد مرة يعيد حساب الوقت المنقضي بين موت شقيقه كما حدده تقرير الطب الشرعي وبين اكتشافه الجثة في السادسة مساءً. اثنتا عشرة ساعة أو أربع عشرة بحد أقصى. نصفه اللوَّام يجعله يعض أظافره.

ـ لو كنت معه!

ولا يلبث أن يتذكر أنه لم يعرف شيئًا عن شقيقه في الأيام الأربعة الأخيرة، لو كان قد مات في أولها لكانت الجثة قد تعفنت. يجعله التفكير في هذا الاحتمال يشعر بالغبطة لأن شقيقه ذهب سليمًا، متماسكًا، بل متيبسًا كخشبة يمكن أن يعبر النهر متعلقًا بها.

ـ لو كان الأمر بيدي لكنت أغلقت شقتي وأقمت معه.

يقول، مبرئًا ساحة نفسه لأن التباعد كان خيار بديع لا خياره.

# 2

كان من الممكن أن يواصل وديع هذا الانقسام حتى مماته، لكنه استأنف المشي في الحديقة بعد إلحاح من ابني شقيقه اللذين أصابهما القلق من أن ينتهي نهاية والدهما. وجد سيدة الكلب كما كانت، لا تخلف توقيتها اليومي قبل الغروب.

واظب كل منهما على الدوران في اتجاه مختلف، والتقاطع، في مصادفة يدبِّرها أحدهما، ثم بدأ تعارفهما، كما يتعارف الناس؛ كلمة حول الطقس ذات أصيل. كلمة حول الكلب في يوم آخر، كلمة حول سنوات غربة وديع، كلمة حول وحدتها، وهكذا توطدت علاقتهما، وبدآ الدوران باتجاه واحد في تلك الحديقة المهجورة.

طرح اليأس خلفه، واكتشف أن الحياة ليست حربًا عبثية مع الذباب، بل مباراة شطرنج تكفي نقلة واحدة موفقة للفوز فيها، بشرط أن يكون القدر قد أنجز نقلتين أو ثلاث متعاطفات.

لو قضى بقية عمره دائرًا في الحديقة وراء لطيفة العراقي، ما كان لشيء أن يحدث بينهما لولا أن الحياة أخذتها إلى دربه. كان لابد أن تعمل في قسم الترجمة بمنظمة دولية، وتعشق زميلها الهندي هيرام باندي، ويموت هيرام بعد خمس سنوات ويترك لها طفلهما راجي، فتربيه وحدها، وكان لابد أن يضجر راجي من الحياة في مدينة الغبار ويرحل إلى مدينة «الله أباد» مسقط رأس أبيه، التي صار لها اسم جديد لا تتذكَّره لطيفة بسهولة. وتتباعد اتصالات راجي، فتشعر بثقل الوحدة.

بعد أن مزجهما الحب صار كلاهما يتدلل على الآخر:

ـ كُنتَ تتبع خطاي مثل «ليل».

ـ كُنتِ تحاصرينني كذبابة.

النتيجة واحدة. تزوجا، وأغلقت لطيفة شقتها وانتقلت للعيش معه. لم تتمكن من إدهاشه بخمس طرق لإعداد البرياني، ويخنة الدال، وسائر ما تعلمته من حبيبها الأول؛ لأن وديع يعرف كل أنواع الطعام الهندي والباكستاني والفلبيني، تعلَّم كل ذلك من زملائه في قلعة البحر. ولم يكن الولع المشترك بالمطبخ الهندي ليكفي وحده سببًا لسعادة اثنين في الحب، لكنهما اكتشفا الكثير من التوافق بينهما في أشياء أخرى، وأثبتا أن بوسع اثنين أن يكونا واحدًا. عرف كيف يستغرق في حبها كذبابة، وعرفت كيف تفصد الدم الفاسد من جراح روحه، وكيف تُغلقها واحدًا بعد الآخر بلمسة من يدها. أنسته هزيمته في الحرب مع الحشرة الطنَّانة، فحمل إليها عقد ذباب من الذهب. نظرت إلى الهدية بدهشة، فسألها:

ـ ألم تعجبك؟

أجابته باسمة:

ـ كل الذهب جميل!

طوَّق رقبتها بالعقد بينما يشرح لها:

ـ قلادة النصر عند أسلافنا كانت من الذباب، ولم يكن يحصل عليها إلا المحاربون الأفذاذ الذين يتحلون بإصرار تلك الحشرة الجسور.

عاد طفلاً. يتسحب على أطراف أصابعه، ليقف خلفها، بينما تغسل طبقًا أو تُراقب طبخة على النار. يُغمِّي عينيها، فتتقهقر نحوه وتهمس ضاحكة:

ـ أكمل لا تخف.

لم يعد يتذكَّر شقيقه إلا عندما يجلس وحيدًا، وهذا ما لا تتيحه له لطيفة إلا عندما تنهمك في عملها الذي تنجزه من البيت. ثم جاء الحزن على اختفاء الشاب حسام فخري ليغمرهما مع سكان العمارة.

تقول طِعمة إنها رأته مسرعًا في المدخل بعد آذان العصر يوم اختفائه، وسألته إن كان خارجًا لشراء شيء لتذهب بدلاً منه، لكنه شكرها، وقال إنه سيقابل صديقًا.

ـ كان أجمل واحد.

تقول، وتجري دموعها، وتتهاوى إلى الكرسي منهكة من أثر حَمل الشهور الأخيرة.

# 3

عاد والدا حسام، ولم يستدلا له على أثر. تعاطف معهما الجيران فترة، لكن الوباء كان ينشب أظفاره، خفيًا كلص، فتَّاكًا كالحرب. وسرعان ما غمرت وفرة الضحايا موت بديع واختفاء حسام بالنسيان، بعد أن تسلَّح الفيروس بجنون غير مسبوق. البعض يموت بعد فشل الرئتين والبعض يموت فجأة بعد أن تُدمي الهراوات الفيروسية المسنَّنة أحشاءه في صمت. كثيرون سقطوا في اليأس، لاعتقادهم بأن الحرب ضد عدو بهذا الخفاء ضرب من الشعوذة وجهد أخرق يشبه محاولة الإمساك بسحر مربوط على رأس حوت في المحيط. وبدا للبعض أن هذا الوباء الذي فشلت البشرية في القضاء عليه، علامة من العلامات الكبرى للساعة وأحد جرائم المسيح الدجَّال، بينما اعتقد البعض الآخر أن الفيروس هو الدجَّال ذاته متخفيًا في هذه الصورة التي لم تخطر على بال.

وكانت الأخبار الحزينة تتلاحق في أرجاء المعمورة، واستقر الخوف، ولم تتوقف المشاحنات بين من يعتقدون بأن الفيروس هو المسيح الدجال نفسه، ومن يعتقدون بأنه مجرد جريمة من جرائمه، متمسكين بما جاء بالأثر عن الصورة البشرية للدجَّال الذي سيظهر في هيئة ملك طيب، تتبعه الكثير من النساء لميلهن إلى العاطفة، والتتار لميلهم إلى القسوة، ثم يفتضح شره ولا يبقى معه إلا التتار، ويزداد طغيانه حتى يدَّعي أنه إله فينزل السيد المسيح ليُخلِّص العالم من شروره ويحكم الأرض سبعة أعوام، وربما أربعين عامًا، قبل أن تقوم الساعة.

لم يبد أن الجدل حول حقيقة الدجَّال قابل للحسم، لكن الواضح أن ما كان المؤرخ يخشاه صار واقعًا يوميًا. تضاعف الخوف وتفجرت ينابيع القسوة في القلوب. استمر سقوط النساء الغامض من شبابيك وشرفات الطوابق العليا، وبدأ الأبناء يتركون أمهاتهم المريضات وحيدات حتى الموت، كثيرون يتساقطون في عتمة العزل، أمهات يخطفن اللقمة من أيدي أبنائهن، وآباء يغتصبون بناتهم، وحُراسٌ يصبحون الخطر الذي يهدد محروسيهم.

المفتونون بالمسيح الدجال انغمسوا في الملذات كالذباب؛ بلا حساب للعواقب، ودون تذوق، لا فرق عندهم بين كومة من القمامة وطبق من العسل أو جرح مكشوف. وعلى النقيض، أصبحت هناك كثرة من المؤمنين تعاف كل متاع الدنيا، وتتمسك بذكرى طيران الحاجة سِمحة باعتباره علامة على اقتراب نزول السيد المسيح.

انتشرت الحكايات عن سحابة العصافيرها التي تحملها عند الفجر وتطوف بها سماء المدينة، وأخذ الناس يتقاطرون عند الفجر، يراقبون واجهة شقتها، لا يعبأون بالعدوى من الزحام. وشيئًا فشيئًا بدأ البعض يجلب أطعمته وغطاءه ويحجز مكانًا من العشية، وسرعان ما استقر الكثيرون بصفة دائمة في الشارع ومدخل العمارة وفوق سلالمها. اشتكى الجيران بلا جدوى، ولم يعد أمام سعيد الطناحي إلا إن يأخذ زوجته ويهرب.

حملها بين يديه عند الفجر وشق بها الجموع الذاهلة المشدودة بكل جوارحها إلى النافذة الزجاجية حيث وقفت طِعمة في جلباب الحاجة سمحة الأبيض؛ تنثر الحَب للطيور. وعندما أضاء آخر شفق الصباح وجه المرأة، وبدا مؤكدًا للمحتشدين أنها ليست الحاجة سمحة، أخذ الحصار في التراخي.

احتفظت طِعمة بمفتاح الشقة. تصعد لإطعام العصافير وتغيير ماء السقَّاية، ثم بدأت تصعد للاستحمام وتحميم الأولاد في دفء الحمام النظيف، وشيئًا فشيئًا بدأت تستخدم المطبخ الفسيح، وأحيانًا تمنح نفسها قيلولة هادئة في سرير الحاجة الناعم، ثم استقرت في الشقة مع الأولاد، دون أن تتمكن من إقناع سالم بالصعود معهم، لأنه رأى أن الحياة ومظاهرها لا تساوي شيئًا بعد أن رأى ثابت باشا سند، الذي لم يكن يرد على سلام جيرانه، يرتدي جلبابًا وطاقية شبيكة بيضاء، ويجلس معه أمام العمارة دون أية احتياطات.

تولى ثابت سند صندوق العمارة بعد سعيد الطناحي. يبلغه سالم بعطل موتور المياه أو المصعد؛ فيرد:

ـ لا شيء يستحق، المهم أن ننجو من فتنة الدجَّال.

يضغط السكان على سالم؛ فيعاود تذكيره بالمشكلة، لكنه يظل في شروده، ويهمس كأنه يحلم:

ـ لم يقفوا على هوة المعرفة المخيفة!

لا يفهم سالم الكثير مما يقوله الشيخ ثابت، لكنه لم يعد ذلك الشخص المخيف الذي يعبر المدخل خطفًا في ذهابه وإيابه بين ثلاثة من الحراس. يتعلم منه سالم الزهد ويُضمر له حبًا فائقًا؛ فهو قليل الهذر، لا يشتمه أو يوبخه أمام طِعمة، ويكاد لا يرفع عينه نحوها، لكنها لا تطيقه. صرخت في زوجها:

ـ الرجل اللزج أكل عقلك؟!

وردَّ عليها سالم حانقًا:

ـ اخرسي، رجل زاهد.

ـ رجل كذاب. هل يرضى أن يترك لنا شقته؟

ـ يا.. فارغة العين. أنتِ لعنة.